

دراسات في الأدب في (عصر صدر الإسلام)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأدب وال النقد

وعضو اتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع حرجا - سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٨١، ٩٢

٦٤

دراسات في الأدب في عصر صدر الإسلام / علي الخطيب. - ط١.-

سوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

١٦٠ ص ٢٤٥ × ١٧٥ سم.

978-977-308-361-2 : تدبیک

٦. الأدب العربي - تاريخ ونقد

أ - العنوان .

رقم الارسال : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات، ميدان المحطة

هاتف: ٠٢٣٤٥٦٧٨١ - فاكس: ٠٢٣٤٥٦٧٩٦

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحذير:

يُحظر النشر أو التسخين أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل

من الأشكال إلا بيان موافقة خطبة من الناشر

2012

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	تصدير.....
٩	ظهور الإسلام.....
١٢	الناحية السياسية.....
١٣	تأسيس الإمارات العربية.....
١٥	الناحية الدينية.....
١٦	اليهودية والنصرانية.....
١٨	ظهور الحنفية.....
٢٠	إرهادات تسيق النبوة.....
٢١	ظهور الإسلام.....
٢١	الناحية الأدبية.....
٢٦	الناحية الاجتماعية.....
٢٦	تحليل النفسية العربية.....
٢٩	أثر الإسلام.....
٣١	الأدب الإسلامي.....
٣٣	القرآن الكريم.....
٣٤	معنى القرآن.....
٣٥	رسول.....

الصفحة	الموضوع
٣٧	جمعه وروايته
٣٨	جمع القرآن زمن عثمان
٣٩	أسلوبيه
٤٠	القرآن المدنى
٤١	القرآن الكريم ليس بشعر ولا نثر
٤٢	الموسيقى القرآنية وخواصها
٤٣	الموسيقى القرآنية
٤٤	فنون القرآن
٤٤	أغراضه وغاياته وفنونه
٤٧	وضوح أفكار القرآن الكريم
٤٩	تأثير العرب بالثقافة القرآنية
٥٠	بلاغته واعجازه
٥١	فنون القرآن البينية
٥٥	إعجاز القرآن
٥٧	أثر القرآن في اللغة والأدب
٦٠	الحديث النبوي
٦٤	أثر الحديث في اللغة والأدب
٦٧	الشعر في عصر البعثة الإسلامية
٨٥	تأثير الإسلام في الشعر

الصفحة	الموضوع
٩٠	تطور النثر في عصر البعثة
٩٣	النثر الفنى
٩٤	الخطابة
١٠٤	الكتابية
١١٥	النثر العلمي
١٤٢	الدعاية
١٥٧	أهم المصادر والمراجع

تصدير

إن الحياة الإنسانية ذات نوعٍ شتىٍ، يمتاز كل منها عن الباقي من جهةٍ ثم تتصل بها مؤثرة ومتاثرة من جهة أخرى، فناحية سياسية، وأخرى إجتماعية وثالثة دينية، ورابعة فنية أدبية إلى غير ذلك من ألوان الحياة ومتناهياً وهذه الأحوال المتشابكة والمعقدة التي تلمسها الحياة خلال القرون المتعاقبة إنما تتطور وتستحيل في بطيء وأناء بعوامل كثيرة متباعدة جلها معنوى، أو خفي لا يمكن أن يحس، أو يشاهد، وإن كان يدرك، وتبعد آثاره في الحياة الحسية في الأوقات المناسبة غليق من الميسور مطلقاً نقل أمة من حياة البداوة إلى حياة الحضرة طفرة، كما أنه ليس من السهل البسيط تلتف نظام الحكم في بضعة أيام، كما أنه من المستحيل تغيير عقل الشعبي، أو فنونه، أو أدابه بتلك السرعة التي قد يتصورها الناس إلا أن يكون ذلك محاولة محكوم عليها بالفشل الذريع ومصيرها الانعكاس والضرر، بل المأساة الضارة والضرر في ذلك هو أن هذه التغييرات تتناول الحياة النفسية للإنسان قبل كل شيء، والتغيير المعنوى في العقائد والأفكار، وطرائق التفكير، والتصوير والتعبير يستلزم زمناً طويلاً يسمح للعوامل المتباعدة من "دين جديد أو رأي مبتكر، أو أسلوب فني حديث، أو أدب طارئ، أو تقاليد، ونظم مفروضة أن تحدث آثارها، وللنفوس أن تتهيأ للجديد، ثم تقبله، حتى إذا توفرت جميع العوامل وحانَت الفرصة المناسبة شاهدت حوادث وإنقلابات يسميها الناس "ثورة" أو "نهضة" أو "تحولًا في حياة الأفراد، والجماعات، فهذا هو هذا العصر الإسلامي الذي نجده خير ما يوضح لنا كيف تنتقل الشعوب من طور

تارىخي إلى طور سواه ، فالحياة العربية كانت في أواخر القرن السادس "المسيحي" ، وأول القرن السابع آخذه في التطور أدبياً وسياسياً ، ودينياً واجتماعياً ، وقد أحس المتقدمون بهذا التحول ورأوا فيه ارهاصاً ، أو مقدمة لحياة جديدة . أوحدت عظيم يظهر في هذه الأمة العربية ، ولم يخطئوا في هذا التقدير حيث إن هذه الظواهر كانت دليلاً على أن حدثاً خطيراً سيُلِمُ بهذه الأمة البدوية فيغير حياتها ، بل سيحدث فيها ثورة ، وانقلاباً هائلاً في كل مناحي الحياة ، بل ويدفعها إلى تأثير دورها الطبيعي على مسرح الحياة العامة .

ذينكم هو "الإسلام" وهو الحدث الخطير الذي أومأنا إليه آننا ، وإن فترة الإرهاب طور طبيعي في حياة العرب ، وهي كذلك الخطوة الأولى الممهدة لبناء عهد جديد ، فهي الصالحة الأولى للعهد الإسلامي والمدخل إلى هذه الحقبة التي نواجهها ، إلا أن فترة الإرهاب هذه ذات مظاهر شتى ، فهي عقلية وسياسية واجتماعية ، وأبية ، ونحن مضطرون أن ن تتبع كل ناحية من هذه المذاي ، ونسير بها حتى ظهور الإسلام ، وبعد ظهوره لنعرف مذاها وما أفادت من هذا الدين الجديد .

المؤلف
الأستاذ الدكتور
على الخطيب

ظهور الإسلام

في عام ١٤٢٥هـ، يُعنى قبيل الهجرة النبوية المباركة احتل الأحباش "اليمن" وبعد خمسين عاماً منَّاً أبْرَهَةَ الْأَشْرَمَ "وَإِلَيْهِ الْيَمَنُ" من قبل ملك الحبيش بجيشٍ غَرْمِمٍ على "مكة المكرمة" وحاصرها عام ١٤٧٠هـ ولكن حملته هذه باءت بالفشل ، وأَبْ يَجْرِيَ الْأَذْيَالَ الْخَرْزِيَّ والْعَارِ ، والْخَيْبَةِ وَالشَّنَارِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ مَكَةَ رَأَوْا مِنْ قَبْلِهِ "الْفَبْلَةَ" فِي الْجَيْوشِ ، بَلْ كَانُوا يَرَوْنَ "الْخَيْلَ" يَمْتَلِئُ صَهْوَاتِهَا "الْفَرَسَانَ" فَسَمِّوُوا الْعَامَ بِعَامِ الْفَبْلَةِ . وَفِي ذَلِكَ الْعَامِ وَلِدَ سَيِّدُنَا "مُحَمَّدَ" ﷺ فِي مَكَةَ وَنَشَأَ فِيهَا يَتِيماً . فَقَدْ تَوَفَّى أَبُوهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْكَلَ ، ثُمَّ تَوَفَّتْ أُمُّهُ وَهُوَ فِي السَّادِسَةِ مِنْ عُمْرِهِ حِينَ كَانَتْ تَزِيرُهُ أَخْوَاهُ مِنْ بَنِي النَّجَارِ وَكَانَتْ وَفَاتُهَا فِي مَكَانٍ يُسَمِّي "الْأَبْوَاءَ" وَفِي الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ تَزَوَّجُ سَيِّدُنَا "مُحَمَّدَ" ﷺ بِالسَّيِّدَةِ الْفَضْلِيَّةِ خَدِيجَةَ بِنْتَ حُوَيْلَدٍ" وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْغَنِيَّ وَالْيَسَارِ ، وَمِنَ الْتَّجَارِ الْمُشْهُورِينَ بِمَكَةَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْبَلَادِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَلَا بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ اخْتَارَهُ اللَّهُ لِأَبَاءِ رَسُولِهِ ، ثُمَّ بَعَثَهُ رَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ وَيَأْتِيَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ لِتَنْبِيَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَأْتِيَ يَصْدُعُ بِالْدُّعْوَةِ . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿فَاصْدِعْ يَمَّا تُرَمُّ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٦] سورة الحجر: ٩٤

ودعا الناس في مكة إلى توحيد الله ثلاثة عشرة سنة ، ومع ذلك لم يزد المعنقون للإسلام فيها أكثر من "سبعين مسلماً" عاشوا جميعاً في اضطهاد وتنكيل ، وتعذيب ، وذل ، وهوأن من الكافرين مثل "بلال بن أبي رياح الحبشي وصهيب الرومي" وعمار بن ياسر ، وأبويه ، وأمه التي رماها أبو جهل بحرية أصابت فرجها ، وأرداها قتيلاً ، ثم كانت الهجرة إلى الحبيشة ، ثم أمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة فهاجروا إليها والنبي ﷺ وكان ذلك عام ١٤٢٢هـ فتلقاء أهل المدينة بالحب ، والترحاب ، وخرج النساء يزغرون ، ويضربن بالدفوف ويدشنن .

طلائع القدر علينا من ثوابات السداد

أيها المعمور ثوابا
جئت بالامر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحباً ياخير داع
ثم دخل أهل المدينة في الإسلام ، وبدلاً من تسميتها "يثرب" سموها
"مدينة الرسول" وتعد الهجرة مبدأ التاريخ الإسلامي والذي يسمى بالتاريخ الهجري.
وبعد ذلك أصبح الإسلام دولة ، وصار المسلمين أمّة وقد حاول المشركون
بالتآمر مع اليهود في المدينة محاربة الإسلام وال المسلمين ، ولكن المسلمين انتصروا
على عدوهم في معارك كثيرة كان من أشهرها "غزوة بدر الكبرى" والتي وقعت
في السنة الثانية للهجرة ، والتي تافق سنة ٦٢٤ للميلاد وغزوة "الخندق"
وكان سنة "خمس للهجرة" ، وغزوة "حنين" وكانت سنة "ثمان للهجرة"
وقد فتح الله "مكة" على نبيه عليه الصلاة والسلام وعلى المسلمين ، وانتشر الإسلام
وعم الجزيرة العربية كلها وفي سنة ١١ هـ لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى بعد
جهاد ودعوة إلى الله وتوحيده دام ثلاثة وعشرين سنة قضى ثلاثة عشرة سنة
في مكة وعشرين سنة في المدينة هذه مدة بعنته عليه السلام.

وكان رسول الله ﷺ رسولاً وقائداً ، وحاكمًا ، فلما توفي عليه الصلاة
والسلام لم يكن للمسلمين خيار سوى اختيار خليفة لهم يدير أمورهم ويرمى
مصالحهم فبايعوا أبي بكر رضي الله عنه خليفة عليهم ، مضى أبو بكر رضي الله عنه "سنتين"
في الخلافة قاد خلالها "حروب الردة" وبعث الجيوش للفتح ، وإنقاذ العرب الذين
كانوا يعيشون في "العراق" ، و"الشام" يرثرون تحت نير الفرس والروم " وبعد
"أبي بكر" رضي الله عنه جاء الخليفة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه ومكث في
الخلافة "عشر سنين" ففتح العرب فيها "العراق" ، و"الشام" ، ومصر ، وفارس ،
وفى عهد "عمر" رضي الله عنه انحدرت الدولة الإسلامية شكلها الواضح ، وصارت دولة
مرهيبة الجوانب ، وامتدت الفتوحات في عهده واتسعت رقعة الدولة الإسلامية
حتى كانت حدودها من الصين شرقاً إلى أن أطل "الإسلام" برأسه من فوق جبال
"المريانس" في فرنسه غرباً.

وبعد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تولى الخلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو أموي، فاتسعت الفتوحات في زمنه في مصر ولبيبا وفي البحار ثم تولى الخلافة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاستمر الاضطراب، وتوقفت الفتوحات بعد نشوء الخلاف السياسي بين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وانقسم أنصار سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنفسهم فأصبحوا "شيعة" وهم الذين ناصروا الإمام علي رضي الله عنه ووقفوا موقف العداء من خصمه، و"الخوارج" الذين كانوا يدعون النزاع بين علي رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنهما نزاعاً سياسياً، ثم عادوا عليها وümüawyîه معًا وحاولوا الخوارج قتل علي رضي الله عنه، ومعاوية رضي الله عنهما وعمرو بن العاص رضي الله عنهما لأنهم جميعاً في رأي الخوارج كانوا سبباً للخلاف بين المسلمين فلم تسنح الفرصة إلا بقتل علي رضي الله عنه سنة ٤٠ للهجرة - ٦٦١ للميلاد.

الناحية السياسية

إن الدارس لتاريخ الأمة العربية قبيل الإسلام أى في القرن السادس الميلادي يشاهد أطواراً عظيمة في نواحٍ كثيرة من حياتها، فالناحية السياسية كانت مركزة لديهم في نظام "القبيلة" التي يخضع أفرادها لزعيم واحد يصل إلى هذا المنصب عن طريق عشيرته الخاصة به . ونلذ لكثريتهم في العدد أو لشهرتهم ببعض الفضائل الكريمة ، ونحو ذلك من الميزات التي تؤدي إلى اتفاق الجماعة على اختباره للرياسة ، والسيادة ، والرئاسة ، وبمضي الأيام اكتسب الزعماء حقوقاً على الجماعات تشبه من بعض الوجوه ما يكون للملوك والحكام في الأمم والشعوب المتقدمة ، فمن ذلك أنهم كانوا يجعلون للسيد ربع الغنيمة في الحرب ، وبخصوصه بالصفايا - والصفايا هي ما لا يمكن اقتسامه من فرنس كريم ، أو سيف قاطع ، أو جلية نفيسة ، وله كذلك حكمه في اختبار ما تقع عليه رغبته من الغنائم ، والتشبيطة وهي ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم ، والفضول ، وهو ما قال منها حين تقسم في الطريق يقول شاعرهـ .

لَكَ الْمَرِبَاعَ مِنْهَا وَالصَّفَلَا وَحَكْمَكَ التَّشِيَّطَ وَالْفَضُولُ

وقد أتى الرئيس هذه الحياة وأحبها لتمكنه فيها من حريتها الشخصية ولم يظهر على أهل البادية في وقت من الأوقات ميلهم إلى الحضر ، واستبدالهم بها سكنى الأمصار ، فاعتزوا بها ، وأثرواها على ما كان بها من شطف العيش ، وقساوة الحياة ، ولقد سئل بعضهم "ما كنت تصنفون بالبادية إذا انتقل كل شيء ؟" فقال : "يَخُ بَخُ وَهُلُ العِيشُ إِلَّا نَاكَ بِمَشِي أَحَدُنَا مِيلًا فَبَرَّأَصُ جَبِينَهُ عِرْقًا كَانَهُ الْجَانُ فِي رِكْزَ عَصَاهُ ، وَيَنْصُبُ عَلَيْهَا كَسَاهُ ، ثُمَّ يَجْلِسُ تَحْتَهُ ، وَتَقْبَلُ عَلَيْهِ الرِّياحُ مِنْ هَذَا ، وَمِنْ هَذَا ، فَكَانَهُ فِي إِبْوَانَ كَسْرَى".

تأسیس الامارات العربية

أو ماتنا آنفًا إلى فقدان الوحدة السياسية ، فقد كان يوجد بعض الأنظمة السياسية بين سكان الحجاز في مكة ، وفي الإمارات العربية التي تأسست إحداها في العراق ، وكانت مواليه لبلاد الفرس ، والأخرى في بلاد الشام ، وكانت تابعةً لبلاد الروم ، وكانت الثالثة في الوسط وهي إمارة "كندة" في بني أسد وأحلافها وكان ولاء الكنديين للملك "غسان" لما كان حادثاً بينهم وبين ملوك "المشارقة" من الخصومة والعداوة ويمكن للباحثين أن يجدوا ظللاً للتفوّد السياسي في هذه الإمارات الثلاث ، فقد كانت لهم إقطاعات وحرس دائم ومتسلّع للجند تشبه من كل الوجوه ما يقوم في المالك الناشئة في العصوّر المتمدنة .

وقد زهت قريش في أوائل القرن السابع بعد اندحار الحبشة ، ورجوع أيرهه الأشرم "بجيشه عن غزو" الكعبة "وازداد من ذلك الوقت نفوذها في الجزيرة العربية وقامت بتحقيق كثير من المبادئ العالية التي قلما توجد إلا في الأمم التي تكون قد بلغت من الرُّقيِّ العقلاني ، والمدنية الإنسانية شاؤاً بعيداً من ذلك "خلف الفضول" الذي تعاقد فيه أشراف "قريش" على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً ، ولا حلاً ، ولا متنصضاً إلا أعنوه برفدهم ، وقضوا أموالهم ، وقال رسول الله ﷺ "شهدت في دار ابن جدعان حلفاً لو دعيت إليه لأجتت" ومن ذلك أيضاً "دار الندوة" التي أقيمت تجاه "الكبعة" ، وهي "دار قصى بن كلاب" وكانت قريش لغيرها بأمر "قصى" تجتمع فيها المشورة في الجاهلية ، وإلبرام الأمور وبذلك سميت "دار الندوة" وذلك لاجتماع الندى فيها واجتماع القرشيين

فيها لاغتيال النبي ﷺ ليلة هجرته ، وهو أمر معروف ومشهور سجلته كتب السير والتاريخ .

ومن ذلك أيضاً "الحكومة ، والرفادة ، والسقاية والحجابة ، والسدانة والإفاضة " وكلها مناقب استثارت بها جماهير "قريش" وامتد لها بذلك نفوذ على العرب جميعاً تظاهرت على الريادة أسباب قوية منها :

"جوارهم للبيت ، واشتهرهم بالتجارة " وما كان لهم من التجارة والبساطة واكتسابهم لكثير من محسن القبائل الواقفة عليهم في موسم الحج ، وفي الأسواق التي كانت مطبقة بمكة وكأنهم في الحملة يتهدأون بهذه العوامل وبغيرها من وحدة اللسان ، والاشتراك في البيئة ، والجنس ، وانتشار النفوذ من حياة الهمجية والقوضي إلى استقبال العصر الجديد من الإسلام الذي جمع منهم الشمل ، ولم شعثهم ، وصيّرهم أمةً واحدةً يدعون إلى الخير ، ويأمرن بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولم يلتبوا أن ملأوا الحياة رحاءً ، وغدلاً ، وأشرقت آفاق الأرض بعوالم وملائعهم الذين سرعان ما خففت الوليمة غزاتهم على أكثر المعمور من أقطار الأرض هنالك صارت العرب شعباً واحداً ، وأمة سياسية خالدة ، اخذت مكانها بين كبريات الأمم في التاريخ .

الناحية الدينية

ليس في وسع الباحثين أن يجدوا بليلاً قاطعاً على مبدأ الشذئن لدى العرب ولا أن يعرفوا عن نشأة الديانات التي شاعت بينهم، ولا عن أنطوارها شيئاً يطمئن الباحث الحديث إلى سلامته من الريب، والحسد، والظن، والتخيّم وما لا ريب فيه أن عبادة "الكواكب" كانت من أقبح العقائد العربية، واشتهر عرب الجنوب من المبنين بعبادة "الشمس" كما ورد في قوله سبحانه في الحديث عن ملكة سباً "بلقيس" ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ أَنْهَىٰ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْنَاهُمْ فَضَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة السحل: ٢٤) وكانت عبادة القمر معروفة عند "عرب الشمال" من البدو الذين كانوا يعتمدون على الرحلة بالليل وبهتدون بضوء القمر في تلك المفاوز الوحشة وقد يقى في الأدب والمعتقدات العربية ما يدل على مكانة "القمر" من بين معابداتهم في الجاهلية مثل تقلبيه على "الشمس" وفي تثنية القمررين، والاعتماد عليه في الصيام والعدة، والحج وعدد السنين والحساب.

وقد عبدوا "عطارد" والمشترى يقول تعالى: ﴿وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَى﴾ (سورة النجم: الآية ١).

وقوله تعالى: ﴿رَأَسَّاهُ وَأَطَّارِيقَ (١) وَمَا أَنْزَكَ مَا لَمْ يَرِقَ (٢) أَنْجَمَ أَنْجَمَ (٣) إِنْ كُلُّ قَنْمِيَّةٍ عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾ (سورة الطارق: الآيات ١-٤).

يقول المفسرون، إن المراد بالنجم هو "عطارد" ويدركلنا "أبوالمذرلين السائب الكلى" وهو من مؤرخي العرب في القرن الثاني الهجري في "كتاب الأصنام" إن أول عهد العرب بعبادة الأصنام كان بعد إقامة "خراءمة" بمكة وسيادتها على الحرم وأن "عمرو بن لحي" سيد "خراءمة" كان قد ارتحل إلى "البلقاء" من بلاد الشام، ووجد أهلها يسجدون لهذه الأصنام، فسألهم عنها "هذه أرباب اتخذناها على شكل الإباكل العلوية لنتنصر بها فدفعوا إليه "هيل" وهو

أعظم أصنامهم ومن أشهر آلهتهم "اللات والعزى ومناة" وعداً أصنام وألهة كثيرة تسموا بآسمائها، وأضافوا أنفسهم إليها مثل "تيم اللات، وعبد يغوث، وامرئ القيس، وعبد شمس، وعبد مناة" وقد نهى القرآن الكريم عليهم هذه العبادات في كثرة كاثرة من الآيات القرآنية منها قوله سبحانه: ﴿أَفَرَبِّكُمُ اللَّهُ وَالْعَزِيزُ وَمَنْتَهَا أَثَانِيَةُ الْأَخْرَى﴾ [سورة النجم: الآيات ١٩ - ٢٠] وقوله سبحانه: ﴿...لَا سَجَدُوا لِلشَّيْءِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقُوهُ...﴾ [سورة فصلت: الآيات ٣٧ - ٣٨] وبعض الطوائف من العرب كانوا يعبدون الملائكة والجن يقول عزوجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا فَيَوْمُ الْحِسَابِ كُلُّ أَهْنَاكُمْ كَلُّ أَهْنَاكُمْ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُورِهِمْ إِلَّا كُلُّ أَهْنَاكُمْ أَكْثَرُهُمْ يَوْمَئِنُونَ﴾ [سورة سبأ: الآيات ٤٠ - ٤١].

ظهور الزندقة :

وقد روى لأن قوماً من قريش كانوا يعتنقون الزندقة وقد قبسوها من "الحيرة" وهذه الزندقة تقول بالهين هما "إله النور" وهو أصل كل خير و"إله الظلمة" وهو أصل كل شر^(١). وهناك قوم من العرب أنكروا الأديان كلها، وأنكروا الخالق، والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المجيء، والدهر المعنى وهي مقوله الملاحدة والدهريون الذين يؤمنون بأن الدهر هو مملكتهم ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلغ^(٢) ويقول القرآن على ألسنتهم: ﴿هَيَّاهُنَّ لِيَوْمَ عِدْنَا إِذْ هُنَّ إِلَاحِيَّاتُ الْأُنْجَى نَسُوتُ وَجَنِّا وَمَا يَهِنُ كَإِلَّا الْدَّهَرُ...﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حِيَّاتُ الْأُنْجَى نَسُوتُ وَجَنِّا وَمَا يَهِنُ كَإِلَّا الْدَّهَرُ...﴾

[سورة الجاثية: الآية ٢٤]

اليهودية والنصرانية :

وقد انتشرت اليهودية، والنصرانية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وليس في المصادر التاريخية ولا الأدبية ما يقاد منه تحديد الوقت الذي ظهرت فيه

١ - راجع المعرف لابن قتيبة الدينوري.

٢ - بلغ الأدب للألوان.

هذه البيانات في بلاد العرب . بيد أن النصرانية التي كانت منتشرة في بلاد "اليمن" وفي قبائل "تغلب ، وقضاعة ، وغسان" ويقول علماء الأدب العربي "ويظن أنها دخلت إلى بلاد العرب في القرن الرابع الميلادي ، وذلك بنقل القساوسة ، والبطارقة ، وإن كان العرب لم يعتنقوا المسيحية ، ولم يدينوا بها ، وقد تسرب إلى الجزيرة العربية في ذلك الوقت فرقتان كبريتان من النصارى : وهما "النساطرة" وكانوا في الحيرة "واليعاقبة" في "غسان" ، "الشام" وقد اختلف المؤرخون في أصل اليهود في بعض المؤرخين يقولون إنهم "عرب" اعتنقا اليهودية وبعضهم يقول "إنهم يهود هاجروا إلى بلاد العرب" ويقول بعض المستشرقين : "إن اليهودية انتشرت قبل الإسلام بقرون كثيرة ، وأسست هذه مستعمرات يهودية ومن أشهرها "يثرب" وهي المدينة المنورة صلى الله على ساكنها سيدنا "محمد" وتسميتها جاءت بعد الاسم الذي كانت تسمى به من قبل ربعوا "يثرب" وكان يهود يثرب تلث قبائل وهي "بني قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع" كما أن أهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب كان "نجران" وهي الآن من أعمال المملكة العربية السعودية . بيد أنها في الحقيقة "بنية الأصل" وكذلك "نجران" فهما مدینتان مبنیتان ونجران مدینة ممتاز بالخصوصية ، وهي قريبة من الطريق التجاري الذي يمتد إلى "الحيرة" وباهلة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ لوفد "نجران" شهيرة . يقول باقوت الحموي : "في معجم البلدان" "ووفد على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ وفد نجران " وفيهم السيد واسمه " وهب " والعاقب " واسمه " عبد المسيح " والأسقف " وهو "أبو حارثة" وأراد النبي عليه الصلاة والسلام مباهلتهم فامتنعوا ، وصالحوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ فكتب لهم كتاباً، فلما ولى "أبو بكر" صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أنفذ ذلك لهم فلما ولى سيدنا "عمر بن الخطاب" صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ أخذوا أموالهم .

فكرة التوحيد

وينى الأستاذ "احمد امين" تابعاً فى ذلك الأمر المستشرقين أن ظهور "التوحيد" في الجزيرة العربية لا ينبع أن يكون أثراً من آثار المسيحية ، أو اليهودية وبضيف إلى ذلك أن الأوطان السامية القديمة كانت المهد الأول للديانات الثلاث الكبرى التي ظهرت في التاريخ وهي النصرانية ، واليهودية ، والإسلام .
ولأنى ألم في جهالة جهلاء ، وضلال عمياً ، أم أنهم يتဂاهلون أن الله سبحانه وتعالى قد بعث إلى العرب أربعة من الرسل قبل ظهور هذه الديانات وهم "سیدنا" هود القبيح وكان في قوم عاد الذين كانوا يقيمون في الأحقاف وثانيهم سیدنا صالح القبيح، وكان في " ثمود " وكانت مزار لهم بالحجر وكذلك سیدنا شعيب القبيح وكان في أهل " مدين " واسماعيل " في العرب المستعربة .
وقد حكى " القرآن الكريم " شيئاً عن مدینتهم وتاريخهم . وليس من المعقول أن تكون الجزيرة قد تجردت من آثار وراثية لرسالات هذه الرسل التي كانت قائمة على أساس الدعوة إلى عبادة الله وتجويده ، وأنه ليس للخلق ولا للأرض والسماء إله غيره سبحانه وتعالى جل في علاه .

ظهور الحنفاء :

إنه من المؤكد أن هناك طبقة من الشعراء والكهان والأشراف قبل ظهور الإسلام قد فطنت وهدبت بفطرتها إلى أن لهذا الكون لها خلقه ، كما فطنت إلى أن الجماعة العربية في غواية منكرة ، فدعت إلى ضرورة الخروج بالعقلية العربية عن هذا الذرك من الانحطاط ، وذلك بتبذل عبادة الأصنام ، والتخلص من عادات الجاهلية مثل "أداء البئارات" ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر" وكان هؤلاء الحنفاء أو المحنفون يذينون بالبعث ، ويؤمنون بالله وحده ، ويدعون إلى الحنيفة دين أبيهم "إبراهيم" عليه السلام وكان هؤلاء يسمون "الثانين أو الحنفاء" ومنهم على سبيل المثال لا الحصر "ورقة بن نوفل" و"قس بن ساعدة الإيادي" و"أميمة" .

بن أبي الصلت" وقد سمع رسول الله ﷺ "قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ يخطب على جملٍ أورقٍ" يبشرهم برسول الله ﷺ ودين جديد قد أظلمهم أوانه ، وأدركهم إبانه وقال فيه رسول الله ﷺ : "يرحم الله فسناً إنما لأرجو أن يبعث يوم القيمة أمّة وحده" .

كما ترى جماعة من الوثنيين قد سُمّوا وثنيتهم ، وأحسوا قصورها من حاجتهم الروحية ، فمالوا إلى الشك ، والإباحة ورأوا في الحياة مهزلة غير مفهومة من الواجب أن تقضي ف لهو ، ونعم ، واستهان ، تجد ذلك في شعر الشاعر "طفرة بن العبد البكري" :-

ألا بهذا الزاجرى أحمر اللوغى
ولن تشهد للذات هل أنت مخلدى

فدعلى ابادرهما بما ملكت يدى

عنتى تائتى لاصحبك كلاساً روية
ولن كللت عنها داعشى فعنن وازدده
كريم ببروى نفسه فى حربان

ستعلم أن متى غداً لذا الصدقة

فهذا شاعر قد استيأس من الحياة ، وشك فى الآخرة وجود الخير
في اطراح الجن ، والتعلق بالله ، وما يتصل به وإنما تركنا الشاعر " طرفة بن العبد
البكري " الذى ينس تمام اليأس بعد وثنياً آخر هو الشاعر " زهير بن أبي سلمى
المزنى " يحس بقصور الديانات التى يراها أمامه فى الجزيرة العربية ، بيد أنه
لا يطمئن إلى أن الحياة عبث ولهو ، أو أن العالم حلق سدى ، وشرع يفكرون في نهاية
هذه الحياة ، متشائماً بفكرة الآخرة قد لا يقبل .

فلا تكتمن الله مَا فِي نفوسكم
لِيَظْهُرَ وَمَهَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ
بِوَخْرٍ فِي وَضْعٍ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِلُ
الْيَوْمَ الْحَسَابَ أَوْ يَعْجِلُ فِي دُنْعَمٍ

فهو إذاً مصلحتن إلى شيء بعد الدنيا من "حساب وجزاء" ولكن هذه الفكرة لا تقوم عنده على برهان عقلي، أو بحث قوى، أو رأى ديني. لذلك تجده بعد ذلك يعود إلى اضطرابه، فيوره لأفكاره القديمة.

فيقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تُصْبِّا
تمته ومن تخطيء بعمر فهراً
فالمولت لديه مصادفة، ومعنى هذا اضطراب العرب أو مفكريهم أمام هذه
البيانات التي تعرض نفسها عليهم، ثم حيرتهم في اختيار أحدها، وفي أيهما أشد
ملاءمة لهذه الحال التي وصلوا إليها من أنطوار حياتهم البدوية، فهم في حاجة
إلى الهدایة، والإرشاد أو إلى مثل ديني أعلى لإشباع هذه الشهوة الروحية الثائرة
وفي هذا الوقت تنتظم القبائل العربية أسباب متظاهرة لنهضة اجتماعية، وعقلية
ظهرت طلائعها بالليل الشديد للوحدة العامة، والاشتراك في النفور من الحياة
بأبعاء الغوضى، والانقسام.

الإرهاصات تسبق النبوة

وكان لأصحاب هذا المذهب الذي أؤمننا إليه أنفًا وهم "طبققة الحنفاء"
أو "المتحنفين" من الشعراء كثير الفضل، وعظيم الأثر في هذا التطور السريع الذي
أفضى بالأمة العربية إلى عدم الرضا بتلك الأديان الشائعة خاصة، خاصة "الوثنية"
والرغبة الأكيدة في التقلة إلى عهد من السلام، والعرفان يتبعث الناس من خلاله
في معايشهم، ووجوه منافعهم، وهم في حراسة الشرائع، وحماية الأوضاع المهدبة
فكان ذلك إرثاً، ومهيداً صالحًا لظهور النبي المنتظر لا وهو سيدنا محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه

ظهور الإسلام

إن الدين الإسلامي الذي دعى إلى عبادة الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار وهو اللطيف الخبير أساسه : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وجعل الجهاد من أجله فرضاً، وأنهم أنه لا يغفل أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وبذلك وحد بينهم في العقيدة، وجمعهم في صعيد واحد للعبادة وكان هذا الاتحاد القلبي هو النعمة الجليلة التي امن الله بها عليهم حيث يقول لهم سبحانه :

﴿وَإِذَا كُرِمْتُمُ الْوَعْدَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْذَابَهُ فَأَكْتُمْ بَيْنَ ثَوْرِكُمْ فَأَشْبَحْمُ بِعَمَّيْدَهُ إِخْرَاجَهُ﴾

[آل عمران: ١٠٣]

الناحية الأدبية

لقد كان للحياة الأدبية مظاهر يجدر بمؤrix الأدب أن يقف عندها قليلاً كي يستشعر القارئ ما كان لظهور الإسلام من متأثر فياض أكسبها رقياً، وإصلاح عظيم أفاض عليها نهوضاً وهي تنحصر في الخطاب القليلة المأثورة عنهم في أقوال كُهانهم وكواهفهم ، وفي تلك الأمثال والحكم المشهورة والشعر.

أما الخطابة عندهم فكانت قريبة من الشعر في التأثير والقوة وإن كانت مقامات الخطباء لم يعرف عنها إلا القدر اليسير ولا شك أنه كانت لهم مواقف متعددة يستعينون فيها بخلابة أسلتهم وهيبتهم وقوتها تأثيرهم عند التأهب للقتال وفي شهود الموسام ، وعند التنافر إلى الحكم ، والفاخرة بالأحساب والأنساب والوفادات إلى الملوك ، والسفارات بين القبائل لعقد الصلح وتأمين التجارة

واحتمال بيات القتلى في الحروب ، ومع ذلك لا يزيد جميع المؤثر عنهم في ذلك
عما عرف لكاتب واحد من أدباء العصور المتأخرة .

وقد قبل إن "قيس بن خارجة" الذي اشتهر بالخطابة في حروب داحس

والغبراء سُئلَ عما عنده في حملات "داحس" فقال ،

"عندى فرى كل نازل وأمان كل خائف ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى
أن تغرب أمر فيها بالتواصل ، وأنهى عن التقاطع . وإن خطيباً يستطيع أن يقف
من طلوع الشمس إلى غروبها موقفاً واحداً يحبب الناس فيه إلى الوثام والتواصل
وينفرهم من الانقسام والفرقـة ثم يعاصر حرباً كما يقول المؤرخون أنها دامت
أربعين سنة لم يكن جديراً بأن يغفله التاريخ ولا يعرف من آثاره إلا هذه الكلمات
القائلة . وذلك بالضرورة بليل قاطع على أن النثر العربي في هذا العصر قد تبدل
وأقلت معظمـه من التقييد والحفظ ، وليس معنى ذلك أتنا لانؤمن بأن العرب في
هذه الفترة من جاهليـتهم لم يكتروا من الخطـب في تلك المواقـف المتعددة التي أشرنا
إليـها فيما سبق ."

وقد تطـاھـرت الروايات على بعض آثار قليلـة من الخطـب كان لمعظمـها
علاقةً شديدةً بالتطور المنتظر للجزيرة العربية وتشـمل نصوصـها على كثيرـ من
المعانـي الدينـية كخطـبة "قس بن ساعدة" المشـهور وهو خطـبـيـن في "عڪاظ"
وأسـقـف "نجران" المشـهور وشـبيـهـ بما في غرضـها ومعناـها وقد رواها "أبو على
المقالـي" في مـالـيـهـ ، ويـتصـلـ بذلكـ شيءـ مما أـثـرـ عنـ "أـكـثمـ بنـ صـبـيـ" وبالـنظـرـ
لـشهـرـتهـ بينـ العـربـ بـالـرأـيـ وـالـحـكـمـ اـشـتـدـ الـحرـصـ عـلـىـ حـفـظـ ماـ يـنـسـبـ إـلـيـهـ ، مـنـ
ذـلـكـ مـوـقـعـهـ فـيـ قـوـمـهـ مـنـ بـنـيـ قـيـمـ فـيـ بـدـءـ ظـهـورـ إـسـلـامـ وـإـهـابـتـهـ يـقـومـهـ أـنـ يـتـبعـواـ

هذا الدين الجديد ويكونوا أول المساعدين على بث دعوته ونشر تعاليمه ، في العرب وما ذكرناه عن الخطابة والخطب يتناول الكهانة والكهان .

مواقف العرب في المناورات التي أشهرها ما وقع بين "عامر بن المغيل" وعلقمة بن علامة العامريين " فقد قيل إنهم تلاقياً وتنازعاً الشرف في حبيهما وقومهما ، ثم أقبلَا يتحاكمان إلى أشراف العرب حتى دفعا إلى "هرم بن قطبة الفزارى" ففصل بينهما بكلمته المشهورة وهي قوله لهما "أنتما كركبتي البعير الأرمي نتعان إلى الأرض معاً وتقومان معاً" ولو لا أنه قبل هذا الحكم قد خوف كل واحد منهما من صاحبه بما كان يظهره عند الخلوة بأحدهما من التضليل له والتهويين من شأنه والإشادة بفضل صاحبه عليه وبعد المدى بينهما في الفخار والشرف والمجد لصوح أن ينقصنا عليه حكمه بقول أحدهما فأيهما اليمين؟ ولكنهما كانا يشققان من هذه الحكومة ويخشى كل واحد منهما أن يقضي عليه .

وقد أثر كذلك من أقوال الكهان وأسجاعهم التي كانوا يعبرون بها الرؤيا ويفصلون بها في الخصومة ما لا يصح أن يعتد به أو يتخذ دليلاً ، على قيمته ما كان لهم من الأدب المنثور لقلته ، وعدم غناه في هذا السبيل كالذى حفظ عن "شقيق وسطي" الكاهنين واتفاقهما على تفسير رؤيا" ربيعة بن نصر الخمي" وما لاقاه في ذلك من الإجبار بغير الأحباش لبلاد اليمن .

أما موقف المؤرخ مما أثير عن العرب من الأمثال والحكم فقد يكون أحسن حالاً مما سبق لكتيرة نبیوں هذه الأمثال والحكم ولقربها من الشعر في سهولة التقيد والحفظ لاشتمالها على جمال التشبيه، وقصر العبارة، ولقياها لهم بإفهام الخصم وإصابة الصواب ، وفصل الحجة عند اشتداد الجدل بين الخصوم وظهور الرغبة من

المتخاصمين في الغلبة بالحجارة والغلبة للمنازع ولذلك كانت حاجتهم ماسة إلى حفظ هذه الأمثال والحكم فبقي منها قدر صالح ، ولا يفوتنا هنا أن نتبه على مقدار ما تدل عليه هذه الكثرة من الأمثال والحكم من جهة سهولة فندعها عليهم وتقيدوها للكثير من المشاهدات والواقع عندهم ، فهي أقوى الأدلة على ما تصلح عند العرب من ملحة البيان وشدة مطاعة اللسان ، وتثير أيضاً إلى ثقوب ذهن ويقطنة فلندة لكل ما وقع تحت الحس من المشاهدات والأحوال وهي فضلاً عن ذلك كله مشتقة من البيئة البدوية وممثلة لحالة الاجتماع العربي وأكثر الفاظها مأخوذة مما كان يستخدمه العرب في حياته العامة من سلاح ولباس ومامون ونحو ذلك مما يجري مجراه الحكمة القائمة لهم في كفهم عن الغرابة وهديهم إلى الرشد وقام الحكماء المسلمين والقوانين الراذعة كقولهم : قبل الرماءَ ثُلَّ الكنان " إن العوان لا تعلم الخمرة " تجوع الحمراء ولا تأكل بثدييها " إن البلاه موكل بالمنطق " إلى غير ذلك كثير مما دون في كتاب " أمثل الميداني ، وجمهرة الأمثال " لأبي هلال العسكري " وأمثال " المفضل الضبي "

وأما الشعر لم يكن للعرب في حياتهم الأدبية أكرم مظهراً منه ، جعلوه ديوانهم ومستودع فخارهم وأيامهم ومازالتهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وديانتهم وعقليتهم ، وإن شئت فقل إنهم سجلوا فيه أنفسهم وقديمياً انتفع الأدباء بشعر العرب في الجاهلية فاستنجدوا منه بعض أيامهم وحربيهم وعرفوا منه أخلاقهم التي يدينونها والتي يهجونها واستندوا به على جزيرة العرب ، وما فيها من بلاد وجبل ، وسهول ووديان ونبات وحيوان ، وما كانوا يعتقدون في الجن والأصنام والخرافات ، وألفوا في ذلك جميعه الكتب المختلفة .

ولا يعنينا أن نبحث عن أوليته ولا عن روایته ، ولا عمما يشغل بعض المجددين من البحث في سبقه على النثر ، أو تقسيمه إلى قصصي وغنائي وقميلي وانخاذ بعضهم من هذا التقسيم معنى للحظ من مقام الشعر العربي معتمداً في ذلك على اتخاذ الأدب اليوناني مقياساً له في الاستحسان والاستقباح لما يعالج من البحث في تاريخ الأدب العربي والشعر ، بدعوى أنه لم يوجد فيها قصص ولا تمثيل بهذا المعنى ، فذلك بالضرورة بعيد عن دائرة بحثنا الذي نستخدمه كمقدمة تمهيدية لتطور الأدب والموازنة بين الأدب الجاهلي والأدب الإسلامي الأموي .

وفي هذه الفترة نهض الشعر نهضة المشهورة ، وتظاهر شعراء القبائل المختلفة في أنحاء الجزيرة على الاشتراك في الإصلاح العام ، واقترب بذلك صيغة اللغة العربية إلى وحدة لغوية جامعة متمثلة في لغة قريش التي تغنى بأسلوبها الشعراء من الأشراف والصالحين في السهول والجبال ، وتسايرت بها مواكب القريض في المواسم والأسواق ، وعند الملوك والسوقة وفي الحروب والمخارات حتى لم تخل بادية من البوادي ولا مصر من الأمصار العربية من الشعراء والرواة الذين كانوا يحفظون الأشعار ويندونها في الأفاق ويتناشدونها في الأسوار والأسفار ، وكانت هذه الوحدة اللغوية مهيأة لبلوغ العرب إلى وحدة اجتماعية وانتشار الشعور بالحاجة الشديدة إلى ترك التنابذ والفرقة وتوجيه الفكر إلى الوئام والاتحاد ، توطنية لاستقبال عصر جديد وعهد مقبل من الإصلاح أصاب العالم برجة عنيفة لم يقتصر أثراها على الجزيرة العربية ، بل تعداها إلى غيرها من الأصقاع العاسرة يومئذ ، وهو ظهور الإسلام .

الناحية الاجتماعية

أراني مضطراً للكتابة عن الحياة الاجتماعية ، ملماً بها إماماً مُجَمِّلاً وإن
أغفلها المنهج - لتفسير ما قد يكون لها من الأثر الأدبي الذي يبدو في الشعر والثر.

مقومات المجتمع :

وتعنى بالحياة الاجتماعية ما يُؤلف بين أفراد الأسرة أو الجماعة من
الأسباب والصلات ، التي تكونها الحياة الاقتصادية ، والسياسية والدينية
والعلمية ، والأدبية ، تلك الأمور باقتراحتها ترسم للأمة صورتها الاجتماعية
ومنهجها الحيوى الذى يكسيها التقدم والسعادة ، أو يكتب لها الشقاء والانحطاط .
فالدين القويم ، والعلم الصحيح ، والخلق الكريم ، والعدالة الشاملة والحكومة
الحازمة الرشيدة ، والعيش المنتظم المارق كل ذلك إذا توافرت لشعب هيات له من
سعادة الحياة واطرادها ورقيها ما لا يحظى به شعب مغلوب على أمره ، يشقى
بجهالة عمباء ، أو انحلال خلقى أو يدين لحكومة ظالماء خرقاء ، أو يحيى ناضب
المورد ، سقيم العقيدة مفكك الأوصال ، تلك ما نجد أمثلته فى التاريخ القديم
والحديث .

خليل النفسيّة العربية:

نلاحظ أن الشعب العربي في الجاهلية كان يحيا حياة منعزلة إلى درجة
كبيرة ، فيقي لذلك محافظاً على ميراثه القديم لا يكاد يغيرها ، وصار لذلك أقرب
الشعوب السامية شبهًا بأصله الأول في تكوينه الجسمى والنفسي جميًعاً ، سمرة
الصحراء وتحول الجسم وتتوسط القوم ، وسعة العين ، ووحدة الذكاء ، وصدق الحس
وسرعة الغضب ، وضيق الخيال ، ومادية الحياة ، وقصر النفس العلمي والمفكري ١

يعيش من عقله في وحدات فكرية هي خطرات طارئة مفككة ، فصار شعره لذلك أبياتاً فدّة ، أو مقطوعات قصيرة أو قصائد ليست ذات وحدة موضوعية أو منطقية تلمس في شعره اضطراب حياته ، وتبصر حياته ونفسه بصورة في آثاره التي كأنها خياله تحكي عيشه .

ولا عجب ، فالأدب صورة الحياة الفردية والاجتماعية وربما كان ضيق الخيال ، وضعف المنطق ، ودنو المثل الأعلى للعرب مانعاً من إنشاء الملامح القصصية التي تحتاج إلى تاريخ محفوظ ، وخیال بارع ، وتنسيق قويم ، وابتکار بدیع كما نلاحظ أن الشعب العربي معروف بالمنافسة الشديدة بين قبائله وكان من نتائجها تلك الغارات المشهورة التي كانت ولا شك نتيجة لهذا الاحتكاك والتراحم على الموارد القليلة في البادية ، ولما رُكِبَ في طيابي البدو في معظم الأحيان إلى درجة من الاندفاع والتهور ، واتجهت في النهاية إلى تقرير مبدأ الانتصار للعشير ظالماً كان أو مظلوماً ، ذلك المبدأ الذي هدبه الإسلام ورده إلى فضيلة الاعتدال .

وكانت هذه البطولة إحدى الدعائم التي قام عليها المجتمع العربي في البادية ، وكانت سبباً فيما اتصل بأسماء كثير من أبطال العرب ومخاويرهم من مناقب الفخار والمجد التي تعنى بها الشعراء ، واتخذت مكانها بين الآداب الحماسية القديمة التي يقى صداتها في الأجيال المختلفة ، وشدد على أوتارها غزارة المسلمين في زحوفهم ووقائعهم المشهورة .

ثم كان من آثارها ظهور المذاق العربية والأشعار المنوهة بالبطولة والانتصارات الفاصلة ، وهي باب واسع في تاريخ الحماسة القديمة لا يزال يجد

فيه المتأدّبون شعاعاً مشيّعاً للعاطفة الثانية وقصصاً محجاً إلى النقوس النازعة إلى منازل الفخار والعزّة كما نلاحظ أن الشعب العربي لم تتع له الحياة العلمية المنسقة التي تنشأ عن البحث والاستنباط ، وتختضع لقوانين منطقية وتحارب طبيعية ، وهذا يحتاج إلى عيش قارٍ ، وفكرة هادئٌ ومنطق عريض ناجح ، لذلك كانت معارفهـم معرضة للأخطاء والخرافات يتوارثونها ويتوسعونها بما يتجدد لديهم ، وينقل لهم من سواهم .

هـذا ، وقد كان في المجتمع العربي كثـيرـ من السـوءـاتـ التي تـعدـ من أـشـدـها دـلـالـةـ علىـ غـلـظـ الأـكـبـادـ وـقـسوـةـ القـلـوبـ وـوـأـدـهـمـ الـبـنـاتـ خـشـبـةـ العـارـ ، وـدـفـنـهـمـ أـوـلـادـهـمـ أحـيـاءـ خـوفـاـ منـ الفـقـرـ وـقدـ نـعـىـ ذـلـكـ عـلـيـهـمـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ، وـغـيـرـتـهـمـ بـهـ الـأـمـ ، كـماـ كانتـ عـادـةـ شـرـبـ الـخـمـرـ وـلـعـبـ الـمـيـسـرـ فـاشـيـةـ فـيـهـمـ إـلـىـ أـنـ حـرـمـهـمـ إـلـاـسـلـامـ .

أثر الإسلام

هذه صورة مجملة للمجتمع البدوي الجاهلي الذي كان منعزلاً في جزيرته ولما جاء الإسلام غير من كل هذا ، فطالهم بالجهاد ، والغزو في مناكفات الفرس والروم ، فخرجت جمahirهم كالسيل المندفع فاراوا الأولى وخضعوا الثانية ، واحتلوا ما اتسع من الأرض يقلدونها وبينونها ، واستوطنوا المدن يتمتعون بخبرها ونعمتها وأنهارها وسهولها ، فتبعت بهم الحال ، ولم تعد حياتهم حسناً على المطر يتشوّقه في الجو المتلبد ، ويتسمونه في الريح المزجي وهكذا خلصهم الإسلام من خرافات الجاهلية وأوهامها التي قد رانت على قلوبهم ، وغير نسبياتهم في عقائدها وعباداتها ، وعاداتها ، وأخلاقها .

أشرنا فيما سبق إلى أن الحياة العربية في أواخر القرن السادس المسيحي وأول القرن السابع قد أخذت في التطور سياسياً ، ودينياً ، وأدبياً واجتماعياً وبدأت تستabil أثناء هذه الفترة ، وأتى عليها فلم يغيرها عذرة وإنما قواها ، وعدل اتجاهها بتعاليمه الدينية المرة فأخذ يصقلها ويدفعها إلى الأمام بالتدریج ، وأية ذلك أن بقيت عادات جاهلية ، وتقاليد قديمة شائعة ، مدة القرن الأول للهجرة ومن مظاهر ذلك هذه الردة التي أعقبت وفاة الرسول ﷺ - ثم هذه الظواهر التي تراها في حياة الحطيثة ، وفحول الشعراء الأمويين ، وعند جماعة من الولاة الإسلاميين الذين تجاهروا بالإثم والعنف فلامهم الخلفاء ووقفوا بهم عند حد الاعتدال كل ذلك يدل على أن الحياة الجاهلية لم تُمح من نفوس العرب تماماً بمجرد ظهور الإسلام ، وبعثما بقيت آثارها مدة من الزمان .

ففي الناحية السياسية ، نجد أنها استمالت إلى جهاد باللسان وبالسلاح
فتح وحروب ، فلا قتال إلا في نشر دين الله ، ولا غزو إلا في إعلاء كلمة الله .
وفي ناحية الدين ، فقد استقر الإسلام واعترف به العرب واعتنتقوه وتمت لهم
وحدتهم الدينية .

بقيت الناحية الأدبية التي تعنى هنا فقد أصبحت متصلة بالقرآن
الكريم ، وكلام الرسول ﷺ - أولاً ، وبهذه النهضة الإسلامية ثانياً . لقد بهرهم
القرآن ببديع أسلوبه ، ومحكم آياته ، وتلاؤم فوائلة ، فخرروا أمامه ساجدين
وملقووا به يستعينون ومنه يقتبسون ، ثم رأوا في كلام الرسول - وهو منهم -
فصاحة متذقة ، وبلاغة متمكنة يخاطب كل قبيل بأعلى ما عرف في لهجته كأنه
نشأ فيهم فُرِيٌّ في أوساطهم ، فأخذوا يقصدون قصده ، وينهجون نهجه حتى
ازدانت الفاظهم ببريق الفاظه وأشرقت معانيهم بغير معانٍ .
وكان من أثر الإسلام أن هجرت الفاظه وجدت الفاظ وماتت ، وما تمت
معان ونشأت معان وعدل من أغراض إلى أغراض وما هذا بالحتاج إلى إيراد
للشاهد وضرب الأمثال للأمثال ، إذ سيأتي في المبحث التالية .

الأدب الإسلامي (تكوينه - عوامله)

لما كان الأدب صورة الحياة السياسية والاجتماعية والفردية كان من الطبيعي أن يتأثر بهذه الحياة الجديدة التي أحدثتها القرآن في الحياة الإسلامية الجديدة التي ظهرت في تدين الأدب العربي وتحضره ، فقد كان أدباً بدوياً يتناول الصحراء وما يلبسها من حيوان ونبات وجماد ، وهو بذلك فعل ساذج جاهلي لا تجد فيه تفكيراً مضطرباً عميقاً ، ولا خيالاً مركباً ولا عاطفةً عميقه ، فأخذ الإسلام - والقرآن - بيده وأحله محالاً جديدة في وادي النيل ودجلة والفرات وببلاد الروم والفرس ، وبذلك أخذ يكتسب من هذه البيئات والشعوب تديناً وتحضراً بلبن العيش ورقة المشاعر ، وكثرة المعارف فوجدت في الأدب الإسلامي فنون وموضوعات حضارية تتصل بالسياسة والدين والتقاليد الجديدة ، كما وجدت أساليب ومعانٍ طريفة هي عنوان مدينة جديدة.

وانتشر الأدب في هذه الموارن ، وقام بأسباب الحياة فيها فصار فيما بعد أدب بلاد الشام والعراق ومصر وإيران وشمال أفريقيا ، وقضى على الأدب واللغات القومية وحل محلها وصار يحمل اسم الأدب الإسلامي بعد ما كان يسمى الأدب العربي بما احتل من حضارات ، واحتمل من آفاق .

ومر على تكوينه تحرر الفكر البشري ودعونه إلى التفكير والتخلّي عن تقاليد الجahلية وأورارها إلى تعليم الإسلام وأخوهه العامة التي تؤلف بين النفوس والشعوب ولا تتعصب في وجه أهل الكتاب ، الذين عاشوا مع المسلمين في حوار وتعاون وأخوة لا ينكرها الإسلام ، كما كان للعلوم الإسلامية والنهوض بها - وذلك بسبب القرآن خدمة ل لتحقيق دعوته وتشريعه أو لتجاراته حضارته الواسعة

المتشعبية ، أثر عظيم في الأدب الإسلامي ، كما كان للحركات الفكرية ، والثقافات الأجنبية ، الفارسية والرومية والهنودية ، أثر في الأساليب العربية .

وهناك آثار مباشرة ظهرت في الأدب الإسلامي ، وكان لها طابع هذا العصر الجديد الذي يميزة من العصر الجاهلي ، ويمكن إجمالها فيما يلى ، -

١- اتخاذ الإسلام نفسه موضوعاً للأدب ، بالجدل حوله والدعوة إليه ، وتناول أحداثه ، وقد ظهرت هذه الظاهرة منذ الهجرة وقيام الغزوات ، فصار الدفاع عن الإسلام ومحاجمته مشغلة شعراء " قريش " والأنصار " (مكة والمدينة) ثم استحالـت الفكرة فيما بعد ، فصارت المعركة بين الإسلام وشيعة (من خوارج وشيعة ، وأمويين وعلويين وزييريين إلخ) .

٢- هذه الفنون التي استحدثتها الإسلام ، وأخصها الشعر السياسي والهجائي والغزل ، فقد كانت هذه الفنون بأوضاعها وخواصها الممتازة ظاهرة إسلامية دعت إليها أسباب ، تناول شرحها بالتفصيل فيما بعد .

٣- وبين الديانات والشعوب الأخرى حين نهض الموالى ، وظهرت مسألة الشعوبية قوية في القرن الثاني والثالث ، ثم تحققت مظاهرها لما نشأت الآداب والحكومات القومية .

وقد ظهرت هذه منذ واقعة " صفين " واستمرت إلى نهاية العصر الأموي وأحدثت آثارها في الشعر وفي النثر ، أى في هذه الخطاب القوية الجذلة عند الخلفاء والأمراء ورجال الأحزاب المختلفة ، وفي الجدل حول المتأهب والأراء السياسية والمذهبية ، وفي المراسلات المطلولة الجامدة ولاشك أن للقرآن فضلاً عظيماً في بروز هذه الفنون وظهورها حقيقة ذات سهولة ورقـة من جهة وجزالة وقوـة من جهة أخرى .

القرآن الكريم

هو كلام الله القديم ، وهو كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله به قسم الله ظهر كلّ شيطان مرِيد ، وأذلّ به كلّ جبار عنيد هو الذي سمعته الجن فهتفت قائلة "أنا سمعنا قرأتنا عجباً يهدى إلى الرشد فلم يشرك به أحداً" هو الذي أحتى رأس الوليد ، والآن قلب "عمر" هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ويعد القرآن الكريم من الناحية الأدبية ، العامة والخاصة ، العامل الأول في تكوين هذا العصر الأدبي الجديد ، وفيما تلاه من الأعصار ، فالقرآن الكريم هو الذي نقل العرب من البداوة إلى الحضارة ، فارتقي بذلك أدبهم وهو الذي وصّلهم بالأمم ، والثقافات الأخرى ، فاثرني بذلك شعرهم ، ونثرهم ، وهو الذي كون بهم إمبراطورية إسلامية كبيرة ، فناعن آثارهم واتساع أفقها ، وتعددت بيتها وهو الذي جعل العرب أو المسلمين يطبعون الحضارة العامة بطالع إسلامي خالد ثم هو من الناحية الفنية ارتقى باللغة وأدابها وفعل في الأدب العربي خاصة ما فعله في الشعب العربي أو الإسلامي عامّة من تمدن ، وخصب في العناصر والموضوعات وذيع ، وتسجيل لظاهر الحضارة في العصور الوسطى وذلك حين انفرد بذلك الأدب الإسلامي بوجه عام .

لذلك كانت الخطوة الأولى في دراسة العصر الجديد هي دراسة القرآن الكريم ، ولكن لما كانت الدراسات القرآنية عريضة لا تكاد تُحصى فإننا مضطرون هنا أن نقف عند النواحي التي تتصل بالأدب ، وكانت ذات آثار مباشرة فيه على أنتنا الإجمال ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، بدلاً من الإسهاب والإطناب الذي لا يتسع له مثل هذا المؤلف .

معنى القرآن

إن لفظ القرآن في اللغة هو " مصدر مزدوج للقراءة " ومنه قوله تعالى:

﴿لَيَأْتِيَنَا جَمِيعُهُ وَقِرَاءَتُهُ ۚ إِذَا قَرَأْنَاهُ فَأَكْبَحَ قُرْءَانَهُ ۖ ۝ إِنَّمَا أَعْلَمُ بِأَيِّ آيَةٍ أَنْدَمَ﴾ [سورة القيمة: ١٧-١٩]

ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسمًا للكلام المعجز المنزّل على سيدنا محمد ﷺ بوساطة " جبريل " عليه السلام على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هي مدة بعثته عليه ﷺ ، أو مدة رسالته ثلاثة عشرة سنة في مكة ، وعشرون سنة في المدينة وهو من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، ولفظ " قرآن " مهمون وإذا حذف همزة فإذا يكون ذلك للتخفيف وإذا دخلته " ال " بعد التسمية ، فإضاها هي للمنع الأصل للتعریف . وهناك تسمية أخرى للقرآن الكريم وهي " الفرقان " وأصل " مصدر " كذلك ، ثم سمي به النظم الكريم ، تسمية المفعول ، أو الفاعل بالمصدر باعتبار أنه فارق بين الحق والباطل ، أو مفروق بعضه عن بعض في النزول ، أو في السور والأيات يقول تعالى :

﴿بِئْرَةُ الْأَوَّلِيِّ تَرَأَّزُ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَذَابِيِّ تَرَأَّزُ ۝﴾ [سورة الفرقان: الآية ١٤]

وهذا الاسمان هما أشهر أسماء القرآن الكريم وبلدهما في الشهرة من الأسماء " الكتاب " آتَهُ ۝ يَكُنْ لِتَكْيِيبِ لَادَبٍ فِيمَ هُدِيَ لِتَكْبِيرٍ ۝ [سورة البقرة: الآيات ٢١-٢٢] والذكر يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِذِكْرِكَ وَلِتَكْبِيرِكَ ...﴾ [سورة الرعد: ٤٤] والتزيل يقول تعالى: ﴿... تَزَرِّلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيرٍ ۝﴾ [سورة نوح: الآية ٤٢] وقد تجاوز صاحب المبهان في علوم القرآن حدود التسمية فبلغ بها خمسة وخمسين إسماً وأسرف غيره في ذلك حتى بلغ بها " بنيقاً وتسعين إسماً " كما ذكره صاحب التبيان .

وفي الأصطلاح ، هو الكلام المعجز المنزّل على النبي ف المكتوب في المصاحف والمنقول بالتواتر ، المتبع بتألوته . وهذا التعريف جمع بين الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم " وإن كان القرآن قد امتاز بميزات كثيرة سواها .

نروله

نزل القرآن الكريم في ثلاثة عشر سنة وهي مدة بعثة النبي ﷺ:

ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة وعشرين سنة في المدينة المنورة ، وقد نزل القرآن الكريم منجماً ، ومفرقاً لأسباب شتى ، وحكمه بالغة يقول سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمَلَةً وَحِدَةً كَذَلِكَ يُتَبَّعُ بِهِ فَوَادِكَ وَرَأْسَكَ تَرْبِيَكَ ۝﴾ (ولا يأتُوكَ بِشَيْءٍ إِلَّا يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۝) [سورة الفرقان: ٣٣]

ويقول سبحانه ، ﴿وَقَرَأَهَا فَرَقَهُ لِنَفْرَةٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْبَرٍ وَرَأْسَكَ تَرْبِيَكَ ۝﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦] وكان أول القرآن نرولة قوله سبحانه ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْأَكْرَمَ ۝﴾ [الآيات من عني] ① أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْأَكْرَمَ ② الَّذِي عَلِمَ بِالْقَدْرِ ③ عَلِمَ الْإِنْسَنَ مَا لَيْسَ ④

[سورة العلق: ١: ٥]

وكان ذلك في شهر رمضان المعظم ، وقد نزل القرآن الكريم دفعة واحدة في "بيت العزة" وفي ليلة القدر ، فلما كان القرآن ذا قدر عظيم وشرف رفيع كان من المناسب لقدر القرآن أن ينزل في مكان مناسب وعظمة القرآن فنزل في ليلة القدر في "بيت العزة" ثم أخذ "جبريل عليه السلام" ينزل به على سيدنا محمد ﷺ حسب الواقع والأحداث . وهذا سر نروله منجماً ومفرقاً . وليسهل على النبي ﷺ وعلى المسلمين حفظه فأول آية نزلت من القرآن في شهر رمضان قال تعالى ،

﴿مَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هَذِهِ لِذِكْرِكَ وَتَبَّغْتُ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ۝﴾ [الفرقان: ١٨٥]

وآخر آية نزلت هي قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِعُوا يَوْمًا تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُؤْخَذُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝﴾ [سورة الفرقان: ٢٨١]

أما القول بأن آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله سبحانه:

﴿آتَيْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ وَبَيْكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ يَعْمَلُونِ وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ وَمَا أَنْهَا﴾ [المائدah: ٣].

هي خير ما نزل من القرآن الكريم وليس بحجة ، وليس هناك تدليل على ذلك حيث إن المعروف والثابت أن هذه الآية لها مناسبة فقد قال يهودي لسيدهنا " عمر بن الخطاب " ﷺ حين نزلت هذه الآية نحن معشر اليهود لو أن هذه الآية نزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيذاً لنا ، فقال له " عمر بن الخطاب " ﷺ والله إنني لأعلم الناس على من نزلت ، وفي أي يوم نزلت ، فقد نزلت على رسول الله ﷺ في عرفات ، في يوم عرفات عام حجة الوداع ، وهل هنا عبد أعظم من اجتماع المسلمين في عرفات .

وقد نزل بعدها على النبي ﷺ " قرآن " حتى بأكثر من شهرين ، وقد ورد عن " ابن عباس " رضى الله عنهما ، وأخرجه النسائي عن ابن عكرمة أن آخر ما نزل من القرآن كله قوله سبحانه : ﴿وَأَنْذِلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَا يَرَوْنَ﴾ [آل عمران: ٢٨١] وعاش النبي ﷺ بعد نزولها " تمسح أليال " ثم لحق بالرفيق الأعلى وتلك الميلادين حللت من شهر ربيع الأول .

جمعه وروايته

جمع القرآن في أيام الرسول ﷺ

كان رسول الله ﷺ حين نزول الآية، أو الآيات أو السورة يحفظها ﷺ ثم يسمعها للحاضرين من أصحابه فيحفظونها، فكان كل ما ينزل يحفظ على الدوام. ولم يكتف رسول الله ﷺ بالحفظ بل كان يطلب كتاب وحده، ليقوموا بكتابته ما نزل من القرآن، وأشهرهم عثمان، وعلى، وزيد بن ثابت وأبي بن حبيب رضي الله عنهم أجمعين فيكتبوه فيما يسهل عليهم من العُست واللخاف، والرُقَاع وقطع الأديم، وعظام الأكتاف والأضلاع للحيوان فكان القرآن الكريم في عهد رسول الله ﷺ مكتوبًا في هذه الأشياء، مثلما هو محفوظ في الصدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب هو محفوظ في الصدور مع ترتيب الآيات غير أن المكتوب لم يكن مجموعاً في مكان، بل كان لدى أصحابه حيثما لحق بهم.

ولم يزل كذلك حتى كانت "حروب الربة" في زمن الخليفة أبو بكر رضي الله عنه واستمر القتل في "واقعة البشامة" بالقُرْاء، حيث قتل منهم سبعون قارئاً فخشى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حفظه القرآن أن يستشهدوا في مواطن القتال، فأهاب بأبي بكر رضي الله عنه أن يأمر بجمع القرآن، فاستدعي رضي الله عنه زيد بن ثابت فقال له: إنك رجل شاب، وعاقل لا تفهمك، وقد كنت تكتب الموحى لرسول الله ﷺ فتنزع القرآن فاجتمعه يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه فوالله لو كلفوني نقل جمل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن ثم قال زيد بن ثابت رضي الله عنه فتسبعت القرآن أجمعه من العُست واللخاف وصدر الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبية لدى الصحابي الجليل أبي حزيمة الأنباري رضي الله عنه لم أجدها عند غيره فكانت تلك الصحف لدى أبي بكر رضي الله عنه حتى لحق بالرقيق الأعلى، ثم عند سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حياته، ثم عند السيدة الفضلى حفصة بنت سيدنا عمر بن الخطاب إلى أن طلبها سيدنا عثمان بن عفان رحمة الله تعالى.

جمع القرآن

زمن عثمان بن عفان

وفي عهد سيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه اتسعت الفتوحات وكثُر العمران، وتفرق المسلمين في الأمصار، فكان كل إقليم يأخذ بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة حتى ظهر اختلاف في وجوه القراءة أدى إلى الشقاق، والنزاع وكانت تكون فتنة في الأرض، وفساد كبير.

والذى حدث أن سيدنا "حذيفة بن اليمان" رضي الله عنه فطن إلى ذلك الأمن، كما في رواية "البخاري" وهو يقاتل أهل الشام في فتح "أربينية" وأذريجان" مع أهل العراق، فأفزعه هذا الخلاف، ولم يكدد يعود من غزوه هذا حتى أسرع إلى سيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه وقال له، "أذرك الأمة قبل ان يختلفوا في كتابهم اختلاف اليهود والنصارى" فأرسل سيدنا "عثمان" رضي الله عنه إلى السيدة الفضلى "حفصة بنت عمر" وطلب منها الصحف التي كانت عندها، وقد دونت فيها القرآن الكريم وذلك لنسخها، وإعادتها "حفصة" مرة ثانية فأرسلت "حفصة بنت عمر" الصحف إلى سيدنا "عثمان" فامر "زيد بن ثابت" ، وعبد الله بن الزبير، وسعید بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين "رضي الله عنهم جميعاً" أن ينسخوها في المصحف، وكان مما قال للقرشيين "إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان "قريش" فإنه إضا أنزل بلسانهم ففعلوا ، وكان ذلك في خمسة مصاحف بعث بأربعة منها إلى "مكة" والكوفة ، والبصرة ، والشام ، وأبقى المصحف الخامس لديه بالمدينة المنورة . ثم أمر بكل ما عدا ذلك أن يحرق حفاظاً على كتاب الله من التحريف ، أو الزيف ، ثم رأى الصحف القديمة جميعها إلى السيدة "حفصة بنت عمر" وعرف مصحفه بالمصحف "الإمام" أو مصحف "عثمان" .

أسلوب القرآن المكى

قبل الخوض في غمار المكى ، والمدى نود أن نعرف المكى والمدى ، والمدى هو ما نزل بالمدينة المنورة والصحيح والراجع هو: أن المكى ما نزل قبل الهجرة ولو كان نازلاً خارجها ، والمدى ما نزل بعد الهجرة ولو كان نازلاً خارجها.

لقد بدأ نزول القرآن الكريم في مكة معبعثة محمدية ، فاصطدم بالوثنية القرشية ، وكان بطبيعة الحال شديداً عنيفاً على هذه الجهة الدينية الوضعية ينذر العصاة ويبشر المسلمين ، ضارياً الأمثال بهلاك الأمم التي طغت وكفرت بالرسل ، لافتاً الأنظار إلى آثار الأمم السابقة المهاكرة ، وكان مع ذلك يضع الأصول العامة للدين الجديد ، بدلاً من التقاليد الوثنية ، ولذلك غالب على "القرآن المكى" هذه الموضوعات :

أولاً ، التوحيد - لا إله إلا الله

ثانياً ، الرسالة: محمد رسول الله ، القرآن وحى الله إليه .

ثالثاً ، البعث: فالموت يعقبه اليوم الآخر الذي يحاسب فيه الناس على ما قدموه في الحياة الدنيا .

رابعاً ، الجزاء: فالجنة للأbelie ، والنار للأشرار هذه الدعوة القرآنية في مكة تستلزم أسلوباً خاصاً، فكان هذا الأسلوب قوياً وموجزاً ، قصيراً الآيات والسور، فيه السجع ، أو ما يشبهه من "إدواج وموازنة" وهو أسلوب موسيقي عنيف ، لأنه وعيده وإنذار ، وإيقاظ لهذه النفوس التي تصنع الأصنام ثم تسجد لها ، وتبعدها من دون الله ، وهو أسلوب الخطابة الثائرة ، والغاضبة أيضاً ، وإن لم يكن من نوع الخطابة المعروفة للجاهليين .

القرآن المدنى

لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ونشطت الدعوة واستقر الإسلام بعد الغزوات الكبرى ، أخذ القرآن المدنى يضع للمسلمين أصول الشريعة ، ونظم الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، ويعلمهم شعائر الدين ، وقوانين الأسرة والتعامل ، وقواعد القضاء والحكم فصارت له بذلك موضوعات أخرى لا يعتمد على عنصر الشعور وحده ، وإنما تعتمد على العقل والرواية ، فاستلزمتا لذلك هدوءاً وسعةً في التعبير وكان الأسلوب لذلك ميسوطاً ، ومطولاً ، وهادئاً طويلاً الآيات والسور ، ومفصلاً تفصيلاً طويلاً إلا أن يجادل اليهود ، أو المافقين فتعود إليه شدته لأنهم كانوا معاندين ، أو كاذبين .

ومن هنا قلما نجد في القرآن الكريم من حيث صلته بمواعيد نزوله أو بموضوعاته العامة .

القرآن الكريم ليس بشعر ولا نثر

إن القرآن الكريم ليس بشعر، ولا نثر، فليس هو من "بحر الملويل" أو "البسيط" أو "الوافر" وإن وردت فيه آيات على هذه الأوزان العروضية المعروفة ذلك لأن الشعر يجب أن يقصد لذاته ، وأن يؤلف من هذه المقطوعات ، والقصائد ذات الوحدة الوزنية العروضية المعروفة مثلاً هو واضح معروف .
وكذلك ليس القرآن الكريم من التثر المعروف "المسجوع" أو "المرسل" وليس من سجع "الكھان" ذلك الذي كان معروفاً لدى "قس بن ساعدة الإيادي" وليس من المرسل الذي عرفه الكتاب فيما بعده ولا الذي نعرفه في أحاديث الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وخطب الخطباء ، فهو مخالف لهما أو هو كما يقول بعض المستشرقين - وسط بينهما ولكن مع ذلك "كلام موسيقى" له طابعه الخاص به يشبه الوزن ، ويمكن تبيان خواصه الموسيقية العامة في نواحٍ أربعة ، والقرآن يخالف بها الكلام التثري المعهود .

الموسيقى القرآنية وخواصها

إن للموسيقى القرآنية وقع وأثر عظيم في النفوس خاصة لدى المتنوعين لأياته ، والفاهمين لكلماته فتري هؤلاء قد سرت معانى القرآن إلى قلوبهم بمجرد مصادفة الآيات لاذانهم . يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِكْرِ فَهُنَّ مِنْ ثُمَّ كِبِيرٍ ﴾ [سورة الفرقان: ١٧] "فانظر إلى بدء الآيات وال سور في مثل قوله سبحانه ،

أولاً : "يَأَيُّهَا النَّاسُ" و "حَمَّ" (١) [سورة غافر: ١] و "سَبَّحَنَ اللَّهَ أَسْرَى
يَعْبُدُوهُ، يَلَّا مِنَ السَّاجِدِ الْحَكَارِ إِلَى السَّاجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَّكَاهُ حَوْلَهُ لِرُبْرِيهِ،
مِنْ مَا يَنْتَنِي إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" (١) [سورة الإسراء: ١] .

ثانياً ، نهاية الآيات كقوله سبحانه "يَعْلَمُونَ" "يَقُولُونَ" "عَوْيَّاً" و "يَهْيَّاً"
و "الْمُهَنَّدُونَ" .

ثالثاً ، في داخل الآيات ، والجمل تجد تناسقاً موسيقياً بين الحروف ، والكلمات
المقابلة مثل قوله سبحانه "عَمَّ يَسْأَلُونَ" (١) عَنِ الْأَنْعَمِيِّ (٢) الَّذِي هُزِيبَ
مُخْلِقُونَ (٣) كَلَّا سَيْلُونَ (٤) لَوْ كَلَّا سَيْلُونَ (٥) [سورة البان: ٥] فإذا ذرنا أن

بين كل جملة وأخرى "تقابـل" موسيقي في عدد الكلمات والحروف والحركات .

رابعاً ، العبارات ، أو الأسلوب : وتنافـلـ العبارـات أوـ الأـسلـوبـ منـ جـمـلـ ليـسـ
مرسلـةـ تمامـاـ ، وليـسـ مـسـجـوـعـةـ تمامـاـ ، إذـ لـيـسـ فـيـ آخـرـهاـ قـرـائـنـ ، وليـسـ
خـالـيـةـ مـنـ التـقـسـيمـ الـذـيـ يـشـبـهـ جـمـلـ السـجـعـ .

فـقـيـ القرآنـ "الـفـوـاـصـلـ" الـتـيـ تـقـابـلـ "الـقـوـافـيـ" فـيـ الشـعـرـوـ"الـقـرـائـنـ" فـيـ
الـنـثـرـالـمـسـجـوـعـ ، وـمـنـ هـذـاـ الـوـجـهـ يـسـمـيـ "نـقـادـ الأـدـبـ" الـحـدـيـثـ "الـقـرـائـنـ" .
يعـنـيـ أـنـهـ فـنـ يـخـالـفـ "فـنـ" الـمـنـظـومـ ، وـالـنـثـرـ .

وبداء في جملته موزعا بين السجع ، والإرسال ، وألموازنة بقوله تعالى:
 «إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى النَّاسِ وَلَمْ يَتَّقِنُوهَا وَلَمْ يَحْمِلُوهَا
 وَلَشَفَعَنَّ بَيْنَهَا وَلَهُمَا إِنْكَارٌ إِذْ كَانُ طَلُومًا جَهُولًا» (٦٧) (سورة الاحزاب)
 فهو نثر مرسلا ، بقوله تعالى : «أَرْتَنِي لَكَ مَذَرِكَ» (١) وَمَسْتَغْلِظُ
 بِذَرِكَ (١) الْبَقِيقَاتِ فَلَاهُكَ» (٢) (سورة الشرح: ١) وهنالك ذكرك نثر مسجوع ، بقوله
 سبحانه «عَمَّ يَسَّأَلُونَ» (١) عَنِ الْأَيْمَانِ العَظِيمِ (٢) الَّذِي هُرْفِي مُغْلَبُونَ (٣) (سورة العنكبوت: ٣)
 هو نثر موازن أو مزدوج .

الموسيقى القرآنية

ومهما يكن من هذا الخلاف ، ودواعيه ، فهناك صفة موسيقية سائدة في أسلوب القرآن الكريم يخالف بها المنظوم ، والمتثور ، هذه الصفة تجدها في آخر الآيات وفي الصلة بينها ، فعندما نقرأ القرآن لا نجد أنفسنا مسترسلين استرسلاً سهلاً ، إنما ننتقل بين آيات وفواصل مناسبة ذات نظام أو تيار موسيقى خاصٌ طلولاً وقصراً إلى حدٍ أنك تستطيع في الآيات القصار تبين هذه الملاءمة في عدد الحروف والكلمات وأوّلتها وتتجدد المناسبة الموسيقى بين الآيات المتوسطة والطوال كذلك ، وكل سورة - مهما تكن - فهي مقسمة أقساماً طبقية يحسن الوقوف عندها ، هذه الأقسام هي الآيات فلست مختاراً إلا أن تكون مريضاً أو مجهوداً في أن تجد هذه المقاطع الطبيعية التي تستطيع التنفس عندها . فالقرآن الكريم مفصل تفصيلاً طبيعياً يضطرك لأن تقف عند فواصله . إلا أن تكون في حاجة إلى الإسراع .

فنون القرآن

وهناك نقطتان نذكرهما تتعلقان بالأسلوب وهما اختلاف الأساليب باختلاف الفنون العديدة التي استحدثها أو قواها "القرآن الكريم" في القرآن الكريم نجد "القصص ، والحوار ، والتمثيل ، والوعظ ، والتقرير ، والمدح ، والهجاء" ولكن من منها أسلوب معروف ، ودراسة هذه الأساليب تحتاج إلى فواع طويل فآثار الحوار بالبراهمين العقلية ، والخطابية وفصل فيه القول تفصيلاً رائعاً جرلاً ، وقصص في سهولة وروعة ، وضرب المثل ، والحكمة موضحاً ، وواعظاً وشرعاً للناس شعائر الدين ، والدنيا ، ومدح ، وهجاء كل ذلك في سبيل غايتها التي تتناول الكلام عنها هنا وفي هذا المضمار.

أغراضه وغاياته وفنونه

حيث نوانن بين الشعر ، وبخاصة الشعر الجاهلي ، وبين القرآن الكريم من حيث الغائية فإننا نجد فرقاً واضحأً فالشعر مع اختلاف فنونه ، وأغراضه من مدح ، وهجاء وفخر ، وحماسة ، وريثاء وغزل ، إنما يعبر عن لحظات شعرية ظارئة متباعدة لا تخضع لوحدة عقلية معينة وتنتهي غايتها إما عند حد التعبير وكفى ، وإنما عند التأثير في السامعين تأثيراً قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ولكن القرآن الكريم له هذه الأغراض ، أو الفنون التي أؤمننا إليها قبلأً وهي كثرة كثيرة من "قصص ، ووصف ، وحكم ، وتشريع ، وهجو ، وثناء" لكنها في الوقت نفسه ذات وحدة ، أو فكرة رئيسية تسسيطر عليها ، وتنتهي لديها من أجلها نزل القرآن الكريم ، وجاء الدين الإسلامي وهي فكرة التوحيد .

فالدعوة إلى التوحيد توجد صريحة مستقلة قبل كل شيء **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۖ أَنَّهُ الْحَكَمُ ۖ لَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُورٌ ۖ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَئْوِيٌّ أَحَدٌ﴾** [سورة الإخلاص: ۱] وبحد الوعظ ، وما يتصل به من ترغيب وترهيب يدور وينتهي إلى الإيمان بالله والواحد الذي ين.

والقصص لا يقصد به التسلية ، أو الفكاهة ، بل هو للإذكار ، والاتعاظ وإقامة الدليل على قدرة الله تعالى ، وما قص به شؤون السابقين من عصوا وطغوا ، وبغوا ، وعاثوا في الأرض فساداً ، والله لا يحب الفساد .

أما الذم فهو منصب على جماعات عارضت الدين ، وناصبه العداء وال الحرب ، سراً ، وعلانية ، فهو يند المنافقين ، والنصارى والمرشكين ، لا رغبة في الذم لذاته ، ولكن إنكارهم التوحيد والمدح إنما هو لأفراد ، وجماعات قبلوا الدين الجديد وأيدوه بأموالهم ، وأرواحهم ، وأبنائهم ، وبينوا في سبيل رفعته كل غال ومرتفع ، فهو يثني عليهم ، ويعدهم بالحسن الجزاء والثوابة ، وليس ذلك حباً للمدح ، ولكن لقبولهم فكرة التوحيد حتى في التشريع المتصل بالزواج ، والطلاق والبيع والشراء ، والسياسة المتصلة بشئون الجماعة الإسلامية وغيرها كل ذلك لتكوين شعب مؤمن بالتوجه ، ويعيش في ظلال فكرته الأساسية ، ودينه الصريح وينقلها من جبل إلى جبل .

فالقرآن الكريم يجمع بين единانية الفنية الخالصة ، وبين التنوع الذي يظهر في هذه الفنون المتباعدة التي احتواها القرآن الكريم . وخلاصة هذه الفكرة الإجمالية هي أن القرآن الكريم واحد في غرضه ، وفكته ، وأساسه ، ومتنوع في فنونه ، وأبوابه .

أما غايتها الدينية وسياستها وهي نظرة موضوعية ، وشكلية فقد كانت جديدة أيضاً ، لأن القرآن دعى إلى دين جديد لم يكن معروفاً من قبل ، ودعا فيه إلى مثل علياً، وتعاليم واضحة كاملة إيجابية يقيمها على أنقاض الوثنية أو المسيحية، أو اليهودية المشبوهة ويؤدي ذلك بأساليب متباينة حواراً ، وقصاصاً وتمثيلاً ، وتقريراً ، وبرهنة ، إلى نحو ذلك من سبل الإقناع والتأثير.

ويمكن ملاحظة ذلك بالنسبة للعرب الذين ظهر فيهم الإسلام ، ونزل القرآن . وإذا قمنا بموازنـة بين القرآن ، والشعر الجاهلي ، فهذا الشعر لم يكن يعرض للناحـية الخلقـية ، ولا للمذاهب الدينـية ، وما يرى عن بعض الشـعراـء أو الكـهـان - إنـ صـحـ - لا يـدلـ على مـذـهـبـ وـاضـحـ تـامـ وـلاـ عـلـىـ فـكـرـةـ نـاضـجـةـ مـعـقـولـةـ تـقـومـ علىـ وـحـيـ أوـ درـاسـةـ وـجـمـيعـ ماـ وـرـدـ مـنـهـ فـكـرـةـ ضـبـقـةـ لـخـصـبـ فـيـهـ وـلـأـضـاءـ بـلـ تـدـلـ فقطـ عـلـىـ الشـكـ ، والـحـيـرـةـ ، والـقـلـقـ ، وـعـدـمـ الـاطـمـئـنـانـ إـلـىـ عـقـائـدـ الـعـرـبـ ، والـلـمـعـ فـيـ مـثـلـ أـعـلـىـ يـلـاثـ حـاجـةـ هـذـهـ النـفـسـ الـعـرـبـيـةـ الـمـطـلـوـرـةـ - فـخـطـبـةـ قـسـ بـنـ سـاعـدـ " الإـيـادـيـ تـوـمـيـ " إـلـىـ وجـوبـ التـبـصـرـ وـالـاعـتـبـارـ بـالـكـوـنـ وـمـظـاهـرـهـ ، وـلـكـنـ إـلـآـمـ يـدـعـوـ وـمـاـ عـقـيدـتـهـ ؟ وـمـاـ مـثـلـهـ ؟ كـلـ ذـلـكـ غـيرـوـاضـحـ وـلـأـمـفـهـومـ كـذـلـكـ الـذـينـ يـسـمـونـ بـالـحـنـفاءـ فـعـنـ كـلـ مـاـ يـعـرـفـ مـنـ أـمـرـهـ هـوـأـنـهـ كـانـواـ يـكـرـهـونـ الـحـيـاةـ الـجـاهـلـيـةـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ " سـفـهـ ، وـقـسـاـةـ ، وـغـلـظـةـ ، وـجـفـاءـ " عـنـ المـثـلـ الـعـلـيـ ، وـكـانـواـ غـيرـ مـطـمـئـنـ إـلـىـ الـيـهـودـيـةـ وـالـمـسـيـحـيـةـ ، مـعـ أـنـهـمـ لـمـ يـكـونـواـ يـعـرـفـونـهـماـ مـعـرـفـةـ تـامـةـ فـكـلـ مـاـ كـانـ هـوـأـنـهـمـ يـتـوقـعـونـ شـبـئـاـ جـديـداـ يـغـيـرـ هـذـهـ الـحـالـةـ وـلـكـنـ مـاـ هـذـاـ الشـيـءـ الـجـديـدـ ؟ لـاـ يـعـرـفـونـ هـذـاـ كـلـهـ عـلـىـ فـرـضـ صـحـةـ آـثـارـهـ الـمـروـيـةـ لـنـاـ .

وضوح أفكار القرآن

أما القرآن فقد جاء بأفكار، وأغراض غاية في الوضوح والدقة ، لا سبيل إلى الشك والحقيقة فيها ، ولا يختلف في فهمها اثنان ، فهو ينكر الحياة الجاهلية في جملتها إنكاراً تاماً ، لكنه يعرف لماذا ينكرها ، وما ينكر منها ، وما الذي يريد وضعه بدلاً منها ، فهو ينكر عبادة الأوثان لأنها لا تلام كرامة العقل البشري الذي أنعم الله به على عباده وهم محاسبون على هذه النعمة ، فإنه من غير الملائم لكرامة الإنسان أن يدين لحجر لا ينفع ولا يضر ، ولا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يعقل فهذه الفكرة جلية واضحة في القرآن الكريم وغير خافية على ذي لب . فالقرآن لا يدعهم إلى ترك الأوثان فحسب ، بل يهدم بيتهنّى ، يهدم عبادة الأوثان ليقيم مكانها عبادة جديدة يتقدم بها الناس إلى الله واحد موجود عالم قهار ، فقد أحدث هذا العالم بعد أن لم يكن وصور ماضية أحسن تصوير ، وأجرى ما فيه على قوانين هي أبدع مما يمكن أن يتصوره الناس ، وهو يكرر هذه الأشياء ، وفي كل مرة يزيدها وضوحاً وجلاً لا يحتاج في فهمها أن يكون الإنسان غالماً ، أو متفلسفاً أو من خاصة الناس وإنما هي دعوة جلية وواضحة ومبسطة لأنها موجهة إلى الناس جميعاً .

وكما أن القرآن الكريم يجادل هذه الدعوة مجادلة واضحة ومفهومة ، تجده كذلك يستدل على بطلان عبادة الأوثان بدلائل ميسرة وسهلة وواضحة ومفهومة يقول تعالى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ① وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ② وَإِلَى الْجَنَّاتِ كَيْفَ نُصِبَتْ ③ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ④ فَذَكَرَ إِنَّمَا أَدَتْ مُذَكَّرٌ ⑤ لَشَّتْ عَلَيْهِمْ يَمْصِطِرٌ ⑥ إِلَّا مَنْ تَوَلَّ وَكَفَرَ ⑦

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٤٦﴾ إِنَّا إِلَيْهِمْ نُمَلِّئُ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ ﴿٤٧﴾

[سورة العنكبوت: ٤٦-٤٧]

فهو يتجه إلى الناس على اختلاف طبقاتهم واتجاهات تلاميذه هذه الطبقات ، وهو يقدر أن فى العرب أناساً ليسوا وثنيين تركوا الأواثان إلى عبادة الله على نحو لا يراه ملائماً للحق ، ولا للطبيعة الإنسانية ، فهو يهاجم الوثنين ، ويهاجم ما فى المسيحية من مُنافاة للوحданية وهاجم أيضاً ما أدخله اليهود على يهوديتهم من باطل وزور ، وهو يناظرهم جميعاً مناقشة عقلية تُلزم عقليّة اليهود ، والنصارى من العرب .

وهكذا نجد القرآن الكريم مجدداً فى غايته بفكرة عالية واضحة كل الوضوح، وميسرة للناس مهما اختلفت درجاتهم من الثقافة وعلقياتهم من الرقي .

تأثير العرب بالثقافة القرآنية

هذا اللون من الفكر، والدعوة إلى مثل أعلى لم يكن معروفاً لدى العرب قليلاً، ولا عجيباً، أن يكون لهذا الكلام، ولما فيه من تجديد أثر بالغ في النفوس العربية فيجعلها تعيش في حالة انبهار تمام وخاصة بعد انتهاء الخصومة، وزوال الخلاف ويطمئن الناس إلى قراءة القرآن، والتفكير فيه بهدوء واطمئنان حتى يكون الحكم عليه عادلاً، فإذا ما تحقق ذلك اطمأن الناس وآمنوا به أنه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وليس غريباً أيضاً إذا قرأوه، وتذمروه أن تتغير عقلياتهم تغييراً تاماً، وذلك لبعد الفارق بين ثقافة القرآن وتلك الثقافة الجاهلية التي لم تتناول إلا الصحراء والإبل والطباء وهذه الخصال البدوية التي تدخل الشعر مدحها وهجاءً – فain ذلك من كلام يتناول الفكرة الدينية كأقوى ما يمكن، وبأساليب متباعدة منها السهل والمصعب والقصير، والطويل !! .

بالإضافة إلى ذلك أن الأساليب التي يتخذها القرآن لتحقيق هذه الفكرة الدينية تختلف اختلافاً في غاية الخطب، والفناء، فهو يثبت ما يلجا إلى الجدل العقلي مرةً وإلى ضرب المثل مرةً أخرى، وإلى القصص حيناً، وإلى الإشارة إلى ما سبق في الكتب الدينية المقدسة حيناً آخر، وفي هنا كله يأتي العرب باشياء جديدة لم يسبق لهم معرفتها فهم لم يعرفوا قبلأً أخبار الأنبياء، ولم يتعمدوا هذه الأمثال التي يضررها لهم القرآن، وعكذا نجد القرآن الكريم جديداً في "أساليبه ومعانيه، وأغراضه وغاياته" وكان من المنتظر أن يقلب حياة الأمة العربية ويعيرها سرعاً وبقة، ولكن هذا التأثير ستتناوله إن شاء الله فيما بعد .

بلاعثه وإعجازه

لَا تفاوت بَيْنِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لَا خلاف بين العلماء على بلاغة القرآن ، واعجازه ، بيد أن بعضهم يذكر قائلاً : إن هناك تفاوت في آيات القرآن الكريم في بعض آياته أبلغ من بعض ، وهذا في رأينا غير صحيح ، لأن الحكم على آية بالبلاغة متصل بظروف الآية ، وبالذين وجهت إليهم ، أي انه يتصل بالمناسبة التي لابستها ، فإذا درسنا القرآن الكريم على هذا الأساس ظهر لنا أن آياته كانت تنزل ملائمة للظروف التي ظهرت فيها وبذلك يتحقق لها معنى البلاغة من كل وجه .

ولكن مدخل الشبهة على هؤلاء أنهم يرون آيات منها سرد لأسماء ، أو فيها تكرار ، أو تنظيم ، وهذه يرونها أقل روعة من آيات أخرى فيها خشن تصوير أو إيجاز ، أو شتم ، أو كناية ، أو غير ذلك فبذلك يفرقون بين قطعة ، وقطعة أوبين فن ، وفن عاقلين عن هذه الملامة التي أومانا إليها ، وبذلك يفاضلون بين آيات القرآن بلاغياً ، وهذا مصدر الخطأ ، وسوء التقدير

وعلى ذلك فاؤل نقطة نذكرها لدى الكلام على بلاغة القرآن الكريم هي ملائتها للأحوال التي ظهر فيها ، من حيث الزمان والمكان ، والجنس ، ونسبة المخاطبين ، والحال العامة للبشرية كلها في كل زمان ومكان . وهناك بحوث تتصل بذلك وهي "أسباب النزول" فهي تدل على مقدار الملامة بين موضوع الآيات ، ومعاناتها ، وأساليبها ، وبين المخاطبين في كل أحوالهم ، فإذا تقدمنا قليلاً صادفتنا هذه الفنون الديانية التي أومانا إليها آنفًا ، وكانت جديدة رائعة وملائمة لغاياتها ، ومحقة لما ترمى إليه ، وأما إذا وقفنا عند خواص الأسلوب فهناك أشياء كثيرة وسنشير إليها بإذن الله تعالى بشيء من الإيضاح .

فنون القرآن البينانية الأمثال

هذه أمثال قرآنية ، والتي سارت حججاً حاسمةً كما هي زينة الكلام وحسن وجمال مثل قوله سبحانه : « إِنَّكُمْ لَيَسْتَقْرِئُونَ ... » [سورة الانعام: ٦٧] و « كُلُّ حزبٍ بِمَا لدِيهِمْ فَرَحُونَ » و قوله تعالى : « ... ضَعْفُكُمْ أَطْلَابُ وَالظَّلُوبُ ... » [سورة الحج: ٧٣] و « ... تَحْسِبُهُمْ جَيِّدًا وَلَوْلَيُهُمْ شَيْءٌ ... » [سورة المثمر: ١١] و « مَاعَلَ أَرْسَوْلِ إِلَٰهِ الْبَلْقَنْ ... » [سورة المائدة: ٤٩] ، و « بَلْ كَذَّابُوا يَمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ... » [سورة يونس: ٣٩] و « ظَاهِرُ الْفَسَادِ فِي الْبَرِّ ... » [سورة الروم: ٤١] و « كُلُّ قَنْبِسٍ يَمَا كَبَّتْ رَهِينَةً ... » [سورة المثمر: ٢٨] .

التشبيه

وها هونا تمثيله التصويري الرائع الذي يعد مثلاً عالياً في إبراز المعنيات في صور حية دقيقة ، يقول تعالى :

« وَأَشَرَّبْتُ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الَّذِي كَلَّمَ أَنْزَلْتُهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَاطَ بِهِ بَاتِّ الْأَرْضِ فَأَسْبَحَ هَيْسِمَا لَدْرُوْرُ الْرِّيحِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا ... » [سورة الكاف: ٤٥] .
ويقول سبحانه ،

« أَلَمْ تَرَكِفْ صَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا كَجَمَّةَ طَيْبَةَ كَشَجَرَةَ طَيْبَةَ أَصْلَهَا ثَابِتٌ وَفَرَعَهَا فِي السَّكَلِ ... » [١٠] ثُقِّلَ أَكْثَرُهَا مَعْلُومًا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَيَصْرِيبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلْأَنْسَى لَمَّا هُمْ يَنْدَكُّرُونَ ... » [٥] وَمِثْلُ كَجَمَّةَ طَيْبَةَ كَشَجَرَةَ طَيْبَةَ أَجْهَنَّمَ مِنْ هُوَقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ... » [١٢] [سورة إبراهيم: ٢٦] إلى غير ذلك مما هو كثير وشائع .

الكنية

وهذه الكنيات القرآنية التي تستعمل حيث لا يحسن التصريح ، وتؤدي المعانى أحسن أداء .

يقول سبحانه : « وَمَا لَوْلَجُورُهُمْ لَمْ شَهِدُوكُمْ عَلَيْنَا ... » [سورة نحل: ٢١] وهي كناية عن " الفرج " أي و قالوا لفروجهم لم شهدتم علينا فكثي بالجلود عن الفرج . وهي غاية في الجمال ، والروعه قوله سبحانه : « ... وَلَكُنْ لَا تُرَأَعُدُّوْهُنَّ بِرُّ ... » [سورة البقرة: ٢٢٥] يعني ينكحها « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَقْرِينٍ وَجَلَّ ... » [سورة الأمان: ١٨٩] كناية عن " آدم " عليه السلام . قوله عز وجل « إِنَّ هَذَا أَخْرِي لَهُ نِسْعٌ وَسَعْنَ تَبَعَهُ رُلْ تَبَعَهُ وَجَدَهُ ... » [سورة من: ٢٣] يعني امرأة قوله سبحانه : « أَوْمَنْ يُنَتَّهُ فِي الْجَلَّةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ عَيْرُ مُبِينٍ » [سورة الأعراف: ١٨] كناية عن النساء ينشأن في الترف ، والزينة الشاغلة عن النظر في الأمور .

التعريف

والتعريف لون من ألوان الكنية التي أوصانا إليها أنفساً ومثاله قوله سبحانه : « ... قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرَّاً ... » [سورة التوبه: ٨١] فلن المقصود بذلك هو التهديد للمتخلفين عن القتال ، قوله سبحانه : « قَالَ بْلَ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ... » [سورة الآيات: ٦٣] بل فعله كبيرهم هذا سخرية به ، وبهم قوله تعالى : « ... وَمَا لَيْ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَ فِي ... » [سورة بيس: ٤٢] يعني مالكم إلى غير ذلك مما ورد في القرآن الكريم .

الأخضر

و والإيحاز لون من الألوان البلاغية الواردة في القرآن وهو باب دقيق به يتفضل البلغاء، وفيه يتنافسون ومثله قوله تعالى: «ولكم في اليمساں حیوة» **كما في الآيات ...** [سرة المؤمنة، ١٧٩].

وقد كان للعرب حكمة يعجبون بها ، ويعدونها من أوابد الكلم وهى قولهم
" القتل أنفى للقتل " فلما نزلت هذه الآية القرآنية تساءلت أمامها حكمة العرب
وظهر فيها ضعف المخلوق أمام جبروت الخالق سبحانه وتعالى فإن الآية كلامتان
وهما " القصاص ، والحياة " وكلمة العرب أربع ، والآية بريثة من التكرار الحالى
في لغة العرب وفي الآية ترغيب في القصاص بذكر " الحياة " المحبوبة وجعلها
نتيجة له . وفي الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص كما تبين الآية أن القتل
ليس تشفيأً ، بل هو عدل وفي الآية تذكير لكلمة " الحياة " وهو للتعظيم ، والحكمة
خطأ إذ ليس كل قتل أنفى للقتل ، فإن ذلك يشمل الاعتداء وأن الذى ينفى القتل
هو " القصاص " .

ومن أمثلة "الإيجار" قوله تعالى: ﴿فَلَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَزَّ ذِي جَلَّ عَنِ الْمَرْءِ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُنْهَاجِ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

وقد جمع الله تعالى في هذه الآية "مكارم الأخلاق" وقوله سبحانه، «إِنَّمَا تَحْكَمُّ فِي مَنْ قَوَّمَ بِخَيَانَةَ فَأَنْبَأَنِّي هُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ...» [سورة الانفال: ٥٨] وما ذكرناه آنفًا يستعين لنا بوضوح وجلاءً تامًّا أنه لا يستطيع بلיע مما أوثق من قوة البيان أن يعبر عن هذا المغزى بهذه الألفاظ حتى يصل مقطوعها، وببسط مجموعها ويظهر مستورها، فيقول إن كان بينك وبين قوم هذه خفت منهم خيانةً أو نقصًا

للعهد والمواثيق التي شرطت لهم ، وأذنتهم بالحرب لتكون أنت وهم في العام
بالنقض سواء ، ومنه قوله سبحانه :

﴿لَمَّا أَسْتَأْشِيَ شَوَّامَهُ حَكَمْصُوا بِهِمْ...﴾ [سورة يس: ٨٠] ومنه قوله :

سبحانه ﴿فَاصْبَحَ يَمَانُورُ...﴾ [سورة الحجر: ٤٤] وقوله :

﴿لَا أُصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزُفُونَ﴾ [١٦] [سورة الرواية: ١٩] وهكذا مما لا يمكن

استيعابه شأن القرآن في كل مناحيه .

وفي القرآن الكريم من ألوان البديع ما يطالعنا به كتاب "البديع" لابن
المعز وكتلك في كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني ، وما تناوله بالنقض والتحليل
للبلاط عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" .

إعجاز القرآن

هذه البلاغة التي أو مانا إليها توصلنا إلى "الإعجاز للقرآن" وهي مسألة ذات تاريخ طويل، ومباحث شتى، وأراء متناقضة فمن قائل "بالصُّرفة" ومن قائل "بالغَوْب" ومن قائل "بالنظم" وربما كان القول بـالبلاغة أجمع الآراء وأشملها إذ يتناول جميع ذلك، فإذا فسرنا البلاغة بأنها "مطابقة الكلام لقتضي الحال" كما هو شائع ومعروف فإننا نجد جميع ما ذكرناه أعلاه في هذا المعنى لأن نفوس العرب حينذاك كانت متأثرةً بعوامل قديمة جاهلية استدعت ذلك كله قصص الماضين، وغيرت المستقبل وعلميات الحياة الراقية.

وهذا الأسلوب الرائع الذي لا يُسامي قد عاصر العرب وشكائهم قوية وأسلتهم حِدَاد، وجمahirهم متطلعون إلى مندوحة من الغيب، أو ظل من الشبهة يلقونها على القرآن عسى أن يُبعدوا جانبه من المصلة بالسماء، وتذليل الوحي وأنهم لوجودها إلى شيء من ذلك سبيلاً لما قصروا عنه، ولا معنوا فيه، وانخدعوا من قليل ما وجدوا منه احتجاجاً عنيداً وتهيئاً شديداً لسياسة الرسالة الإسلامية على الإطلاق، ولكنهم بعد أن داروا بأعينهم فيما حولهم من الأشياء، وبعد أن قلبوا ما أتى به رسول الله ﷺ من القرآن على عقولهم، وما زاهم وراضوه باحتياطهم وأسلتهم، واجتمع لهم مشايخهم وفهمائهم، والقادة المخصوصون بالشرف والرياسة من عشائرهم تراسلوا فيما عرض من ذلك لهم، فقال لهم "الوليد بن المغيرة" وقد اجتمع إليه نفر منهم في خبر طويل ذكرته كتب السير، والتاريخ الإسلامي فقالوا له "قل فيه قوله يبلغ قومك أنك كاره له" قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا يرجزه، ولا يقصده ولا بأشعار الجن

والله ما يشبه الذي تقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلوة ، وإن عليه لحلوة ، وإنه لمصر أعلاه ، مدقق أسفه ، وإنه ليعلو ، ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطط ما تحته " قالوا " لا يرضي عنك قومك حتى يقول فيه قال " فدعوني حتى أفك ، فلما فكر قال ، " إن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر جاء بقول سحر يفرق بين المرأة وأبيه ، وبين المرأة وأخيه ، وبين المرأة وزوجها ، وبين المرأة وعشيرتها فتعرقو عنده بذلك ، ثم لم يمتد بهم التجاج ، ولم تطل المعاندة حتى تبين لهم أنه الحق فامنوا به وصدقوا بتنزيله ، ووحبه .

ونحن لا نتردد في أن العرب قد عرقو باللسان والفصاحة والبلاغة والقول فقد أمسكوا بزمام الفصاحة ، وأخذوا بتلابيب البلاغة فكانوا بحق فرساناً في البيان ، وعمالة في القول والبلاغة وكانت أمة العرب لا تعرف الفضل لرجالها إلا في شعر يجيدون حبّكه ، أو خطب يرمون بظواهراً ، وقصارها ولنا كان ذلك يناسب أن تكون حجة " محمد " عليه السلام هي " البيان والبلاغة " لأنها هي التي آمنوا بها فيما بينهم وعرفوا قدرها في نفوسهم .

فما لا ريب فيه أن القرآن الكريم قمة في الإعجاز البلاغي واللغوي وهذا مما لا يختلف فيه إثنان ، ولا ينقطع فيه عنزان وهو مع بلاغته سليم التأليف خالٍ من الاضطراب وهذا هو الذي شغل علماء البلاغة فظلوا أحياً طويلاً ييطلون اللثام عن أسراره ، ويسرون أغوار بيانه فما انتهوا إلى غاية ، ولا وقفوا إلا على بعض الذي ينطوى عليه هذا العزم العجيب ، وذلك الأسلوب الرأقي .

أثر القرآن في اللغة والأدب

إن اللغة العربية من حيث هي الفاظ، وعبارات لهجة خاصة ونظام نحوى متاز قد تأثرت بالقرآن الكريم تأثيراً مباشراً يظهر فيما يأتي :

أولاً ، إيجاد كلمات جديدة للعرب قبل الإسلام والقرآن وهذه الكلمات متصلة بما أتى به القرآن من شعائر جديدة أو معانٍ طارئة جرت على لسان الرسول ﷺ - ووردت في الكتاب العزيز من ذلك كلمة الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، والاتفاق اسم [إسلامي] لم يعرف في الجاهلية وهو من دخل الإسلام بلسانه دون قلبه سمي منافقاً من نأقاه اليربوع ، ومن ذلك قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - مات حتف أنفه - ولا ينتفع فيه عززان .

ثانياً ، عكس ذلك أى إمامة الفاظ كانت موجودة فلما ماتت معانيها ماتت ألفاظها من ذلك "المریاع" ، "والنشيطة" ، "والفضول" وهي أسماء لأقسام من غذائم الحروب كانت وقفاً على الرؤساء والساسة ، وحل محلها - ما ذكر في نحوقوله تعالى : ﴿وَأَغْنَمُوا أَنَّاسًا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ هُنَّ قَاتِلُوْنَ مُؤْمِنُوْنَ وَإِلَيْهِمُ الْمُرْسَلُوْنَ وَإِلَيْهِمُ الْشَّرِّ وَالْيَسْكِنَ﴾ [الأناضال: 41] " إلخ .

ثالثاً ، ومن ذلك نقل الفاظ من معانيها اللغوية إلى معانٍ اصطلاحية شرعية كلفظ "المؤمن ، المسلم ، والكافر" فالعرب إنما عرفت المؤمن من الأمان ، والإيمان هو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام وأسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء وكذلك كانت العرب لا تعرف من الكفر إلى الغطاء والستر وكلغظ الصلاة والصيام والزكاة والحج والعركوع والمسجد فقد كانت لها معانٍ في الجاهلية غير معانيها في الإسلام وأما تأثير اللغة بالقرآن تأثيراً غير مباشر أى ليس من صميم تكوين حروفها وكلماتها فيمكن ذكره فيما يلى :-

١- نشر اللغة العربية وانتقالها بالقرآن الكريم إلى بيئات أجنبية جديدة

فى " مصر والشام والعراق وبلاد فارس والروم " تبعاً للإسلام وانتشار القرآن، إذ كان المسلمون من هذه البلاد يتعلمون القرآن ولغته تكميلًا لإسلامهم، ومسايرةً للنظام الجديد وكان من ذلك ظهور علماء اللغة والأدباء وال فلاسفة المسلمين من غير العرب، وبذلك عرفت العربية بين الصين والأندلس وجنوب السودان.

٢- توحيدتها ، فقد كان العرب نموذج لهجات خطابية عدّة، تختلف

فى الألفاظ والتراكيب واللهجات والإعراب ، ولكن لغة القرآن قضت على تلك اللغات أو اللهجات وحملت العرب جميعاً على اعتناقها وتترك ما عادها، وقد حصل ذلك بالتدريج ، ولعله تم رسميًا أو غالبيًا زمن " عثمان " لما كتب المصحف بلغة " قريش " وحمل عليها القراء والمسلمين وقد كان الرسول (ص) يسر على العرب القراءة بلهجاتهم أول الأمر مجارةً للكاتب لهم اللغوية الأصلية المقاومة ثم انتقلت هذه اللغة القرشية مع القرآن إلى البلاد الإسلامية فكانت اللغة الإسلامية الرسمية.

٣- سلامة الأداء فى لفظ الحروف والكلمات وقواعد النحو والصرف وتكوين

الجمل وذلك راجع إلى بقاء القرآن محفوظاً غير معترض ، ومنقولاً بالتواءات اللفظي وغير خاضع للتطورات التي ألمت بلغات العامة فحفظ القرآن أسلوب اللغة وتكوين كلماتها وجملها ، ونجمة أدائها سليمة كما عُرِفت أيام الرسول (ص) وهذا يعرض بعض المستشرقين على هذه المحافظة الشديدة التي حالت بين اللغة وبين التطور ، ولكن ذلك مردود إلى وجهين:-

أحدهما ، أن سلامة العبارة لا تغير التطور مطلقاً ولا سيما ما هي عليه من سعة

في تكوين الجمل والفرقـات وقد حدث ذلك فعلـاً دون معارضـة هنا

المثال القرآـنى فطـوعـتـ اللغةـ لكلـ معـانـىـ وـمـوـضـوعـاتـ الحـضـارـةـ .

وتأييدهما ، أن ذلك التطور العام الذى يرمون إليه ويمثل جهود الشعوب المختلفة فى تكوين لغات فرعية عراقية ، ومصرية ، وشامية – وقد حدث فعلًا – لم يعرض فيه القرآن ورجاله بل قد يكون فعلًا آداباً قومية وسمح للغات الإقليمية أن تنمو كما شاءت – ونرجوا لا يغضب هؤلاء النقاد – الفصحي سلبيمة تقيم هذه الألسنة والأقوام فهى ميررة ملائمة للصلات العامة بين بلاد الشرق العربى .

٤- احتمال هذه اللغة مظاهر الحضارة واستيعابها لشئونها وملابساتها فقد كانت فى الجاهلية وقفًا على مقومات الحياة البدوية الساذجة ولكن القرآن ، قواها ونشرها وطوعها لعلوم الفرس واليونان والهند والسريان ، وللعلوم الإسلامية الخالصة وطوعها لفنون الأدبية التى زخرت بها الأداب العربية على يد الكتاب والشعراء والفنين وال فلاسفة والمؤرخين ، فمكنت بذلك دوراً خطيراً فى تاريخ الحضارة الإنسانية .

اما الأدب فهو كما قدمنا قد تأثر بالحياة الجديدة التى أحدثها القرآن وتمثلت فى تحضر الأدب ، وانتقاله من أدب صحراء سائج يدور حول الصحراء وحيواناتها ونباتاتها إلى أدب متثقف متحضر ذى فنون وموضوعات حضارية متصلة بالسياسة والدين والفكر العلمى الإسلامى العميق الذى أخذ ينتشر حتى دخل وادى النيل ودجلة والفرات وبلاد الروم والفرس وقام بأسباب الحياة فيها ، وقضى على آدابها ولغاتها القومية وحل محلها ، ونهض بجميع العلوم الإسلامية والعربية الأصيلة والدخيلة ، وذلك إنما كان بسبب القرآن الكريم الذى قضى على الروح التعصبية وألغى بين النفوس والشعوب ، ولم يذكر لأهل الكتاب الذين وجدوا فى جوار المسلمين ومعاونتهم ومساندتهم ما يحقق معنى الأخوة والإنسانية ، ويتعاليم القرآن والاسلام الذى لم يرفض الحركات الفكرية والتثقافات الأجنبية ؛ الفارسية والرومية والهندية، وجد جيل إسلامي متحضر رقيق المشاعر، غير زير المعرف .

الحديث الشريف

يراد بالحديث الشريف كل ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ولما كان أصحابه قد عاشروه وسمعوا قوله وشاهدو عمله، وحدثوا بما رأوا وما سمعوا، ولما كان التابعون قد عاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأوا ما فعلوا، اعتبر الحديث شاملاً لأقوال الرسول وصحابته والتابعين متى جاءت عن طريق المحدثين فإنها تأخذ حكم الأقوال المرفوعة إلى رسول الله ﷺ من جهة الاحتجاج بها.

تدوينه :

الذى يستفيد من حقائق التاريخ أن رسول الله ﷺ اخذ كتبة للوحى، يكتبون آيات القرآن الكريم عند نزولها ، ولكنهم لم يتخذ كتبة يكتبون ما ينطوى به من غير القرآن ، بل قد وردت أحاديث تنهى عن تدوين الحديث منها أن رسول الله ﷺ قال : " لا تكتبوا عني ومن كتب عن غير القرآن فلديمه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوا مقدمه من النار " .

الخلاف في تدوين الحديث :

ويروى عن ابن عباس قال : " لما اشتدى بالنبي ﷺ وجده قال : إنوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضروا بهـ " . قال عمر : إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسينا " .

نعم ، وجدت أحاديث تدل على أنه كتبت صحف من الحديث في عهد رسول الله ﷺ كالذى رواه البخارى عن أبي هريرة أن خزاعة قتلو رجلاً من بيته ليلة عام قطع مكانة بقتل منهم قاتلة فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته فخطب فقال إن الله حسنه عن مكانة للقتل أو القتل قال أبو عبد الله هذا قال لو نعمتم واجتنبوا على الشك القتل أو القتل وخيرة يقول القتل وسلط عليهم رسول الله ﷺ والمؤمنين إلا وإنها لم تحل لآخر قاتل ولم تحل لأحد يغدو إلا وإنها حللت لي ساعنة من نهار إلا وإنها ساعتها هذه حرائم لا يختلى شوكها ولا يعتصم شجرها ولا تلتفط مناقطها إلا لمن شهد فمن قاتل فهو بغير النطرين إثناان يعقل وإنما يقاد أهل القتل فجاء رجل من أهل اليمن فقال أكتب لي يا رسول الله فقال لكثيراً لأبي قنان " .

وكذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص من أنه كان يكتب كل ما سمع من رسول الله ﷺ، وقد أراد بعض العلماء التوفيق بين هذه الأحاديث المتضاربة فقالوا، إن النهي عن الكتابة كان وقت نزول القرآن الكريم خشية التباسه القرآن الكريم بالحديث، فالواقع أن أصل كتابة الحديث وقع في عهد النبي ﷺ، أما تدوين الحديث فيكتب فقد وقع بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ فقد روى في الصحيح أنه كتب إلى أهل الأفاق أن "انظروا ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته فاجمعوا أو اكتبوا".

قبل ، إنه استخار الله أربعين يوماً، ثم أمر "ابن شهاب الزهري" أو ابن جرير، أو أبو بكر بن حزم ، بجمع الحديث وتدوينه . فكان ذلك ، وبعث بما جمع إلى الأمصار، ثم فُقد هذا المدون ولم يوقف له على آخر.

وأول من دون الحديث "محمد بن مسلم الزهري" المتوفى سنة ١٢٤ هـ والمعروف أنه كان يروي عن الصحابة مثل "عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد الساعدي".

طبقات الحدثين :

و قبل أن أول من دون الحديث "الربيع بن صبيح" المتوفى سنة ١٦٠ هـ وسعید بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ، ثم شاع التدوين في الطبقات التي تلى طبقة "الزهري" كمالك بن أنس، وعبد الملك بن جرير، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وحماد بن سلمة. وكان بني كثير من رواه الحديث في هذا العهد يكتبهن الأحاديث عند تلقيها ولا يكتفون بحفظها عن ظهر قلب ، فإذا نجد في تاريخ طائفة منهم أن لهم كتاباً يرجعون إليها عند الرواية . ونجد في تاريخ من يروون عن أمثال "الزهري" أن في مخالفاتهم أجزاءً كثيرة تحتوى أحاديث أخذوها عن أولئك الأئمة.

أصحاب المسندات :

ويصل بنا البحث إلى أن مصنفات الطبقات التي جاءت بعد طبقة "مالك وابن جرير" قد بلغت الغاية في جمع الأحاديث . وفي ذلك العهد صنفت مسندات كثيرة كمسند أسد بن موسى الأموي المتوفى سنة ٢١٢ هـ، ومسند عبد الله بن موسى العيسى

"المتوفى سنة ٢١٣ هـ، ومسند نعيم ابن حماد الخزاعي" المتوفى سنة ٢٢٨ هـ، ومسند "أحمد بن حنبل" المتوفى سنة ٢٤١ هـ،

وجاء بعد هؤلاء أصحاب الكتب الستة وأولهم "البخاري" وأخرهم "النسائي" وما في الكتب الستة أو معظم ما كان مدوناً في الكتب المصنفة من قبل.

وهذه النظرة التاريخية تدلنا على أن أصل كتابة الحديث وقع في عهد النبي ﷺ ثم لم يمض قرناً حتى قيد معظم الحديث بالكتابية والتقوين.

أنواعه الأدبية : -

لقد عرف رسول الله ﷺ بأنه صاحب دعوة، ومنشئ دولة، ومؤلف جماعة، فتكللت الوفود على بابه وتراحمت عليه القبائل والجماعات مستسلمة لدعوته، مؤمنة بشرعيته، مأخوذة بحديثه الجامع وبيانه الآخر، وبلاخته المتداقة، وفصاحته المتمكنة.

فتونه :

عرض عليهم الواناً وفنوناً من تشريعه المبين، وحكمه البالغة، وأمثاله المسائرة، وأصواته الحق، وقوانينه العادلة، ونصائحه الشاملة، بأسلوب يسيل نوراً وروعةً، ويفيض رقةً، وفناةً.

الأمثال : -

فمن أمثاله المسائرة، "إن من البيان لسحراً"؛ وإن الذنب لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى، "إياكم وحضراء الدمن"؛ إن مما يثبت الربيع ما يقتل خططاً أو يلم.

الحكم :

ومن نصائحه ﷺ في ثوب الحكمة والكلمة الجامحة "رب مبتلي أوعى من سامع"، "التمسوا البريق في خباب الأرض"، "السلمون تتكافأ دماءُهم ويصعد بدمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم"، "المرء مع من أحب، ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له"، "اتق الله حيثما كنت واتبع السبيئة الحسنة نجها، وحالق الناس بخلق حسن"، "الرغبة في الدنيا تکثر لهم والحزن"، "البطالة تقسى القلب" "اليد العليا خير من اليد السفلية". "زيفياً تزدد حباً".

"الوحدة خير من جليس السوء"، من أصبح معافي في بذنه، أمّا في سربه، عنده قوت يومه، فكانما حيزت له الدنيا بحثافيرها، "لو تكاشفتم ما تدافتتم".
 وكتب الحديث مستفيضة بالأمثلة الكثيرة والشاهد التي لا يُخْصى على بقية الأنواع كالتشريع والقوانين والقصص كما تفيض بالتراكيب المبتكرة التي لم تعهد لأحد قبله، ولم تؤثر عن بلية سابق مثل "الآن حمى الوطيس"، "هذة على دخن"، "هذا يوم له ما بعده"، "يا خيل الله اركي"، "لا ينتفع فيه عذران"، "رقا بالقوارير".
 بلاغته: -

أحاديث الرسول (ﷺ) وإن كانت فيوض الخاطر، وعفو البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام وسمة العبرية وطابع البلاحة، وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز كلام الرسول (ﷺ) باشراق ديناجته، واتساق عبارته، وتساؤق الفاظه وتراكيبيه، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول (ﷺ) يستعمل الغريب وينلزم السجع ويُخاطب كل وفد بلغته.

معرفة الرسول (ﷺ) بلغة القبائل: -

والنبي (ﷺ) لم يعلم عنه أنه انتقل في تلك القبائل قبلبعثة حتى يحذن لغاتها، ومثل ذلك لا يكون إلا بالهام وعليم من الله، ولقد قال له "علي" - رضي الله عنه - حين سمعه يخاطب وقد "بني قهد": "يا رسول الله نحن بنو أب واحد وذرراك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه، فقال رسول الله (ﷺ): "أبجني ربى فأحسن تربيتي، يبدأني من قريش وربيت في بني سعد" تلك ينابيع ثقافته (ﷺ) ومن ذلك كتابه "لواقي بن حجر الكندي "أحد قبائل "حضرموت" . -

"إلى الأقبائل العباالة، والأزواع المشايبب"

ومن: "وفي التبعة شاة لا معورة الألياط، لا حناك وأنطوا الثيجة، وفي السبوب الخمس، ومن زنى من بكر فاصبوه مائة" واسفه فهو عاما، ومن زنى من ثيب فاضربوه بالأضمام ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله تعالى، وكل مسکر حرام، وواقل بن حجر الكندي يترقب على الأقبال".

ولرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتلميح وإرسال الحكمة وإجاده الحوار، وتلك ميزة اختصه الله بها فهو أفعى العرب منطقاً وأبلغهم قولاً، حتى لقد قال له "أبو بكر" رضي الله عنه - لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفعى منك فمن أذك علمك؟ .

قال رسول الله ﷺ ، "أذنِي ربِّي فأحسن تأدبي" .

أثر الحديث في اللغة والأدب :-

إن للحديث قيمة كبرى من جهة الثقافة والدين على منزلة القرآن الكريم، فإن كثيراً من آيات القرآن محمل، أو مطلق أو عام، فيأتي الحديث مبيناً له، أو مقيداً، أو مختصاً من كل ما يتعلق بأدب، أو عبادة، أو معاملة،

الحديث لا يسمو إلى منزلة القرآن الكريم :-

إن قيمة الحديث وإن كانت تقسم بطابع البيان والإلهاام ، والعبرانية فإنها لا تسمو إلى مكانة القرآن الكريم لأن القرآن كان بدونه متدلزلاً ، وفرض على المسلمين أن يحفظوا بنصه .

﴿فَمَنْ يَدْعُ بَعْدَ مَا سَمِعَنَا إِلَّا إِنَّهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يُبَرِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة البقرة: 181] .
وذلك بخلاف الحديث فلم يتم تدوينه إلا بعد قرابة من الزمان وكان قبل ذلك إنما يروى عظمه من الناكرة ، وكثيراً ما تخون ويعترضها التنسابان ، والضياع ، لذلك نال الحديث كثير من تفسير الكلمات والتراكيب . واختلاف الروايات ، وزاد في ذلك أن أحاجز بعض العلماء رواية الحديث بالمعنى وذلك لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة مطوال هذه السنين . وليس من فم الأديب أن يعني بما نال الحديث من الاختلاف والتبدل، ولا بما نال المحدثين من الجرح والتعديل ، فإن الأدب إنما بعد الأحاديث ، صانقها وكأنها مذهبآ من مناهج القول له التأثير البالغ ، والأخذ الشديد .

أثر الحديث في اللغة والأدب :-

إن جلّ الأحاديث يبدو عليها نور النبوة ، وروعو الحق ، ورواء الطبع ، ورواق الفصلحة ، هلا يلتفت لها بعد القرآن التأثير الكبير في جميع الوجوه التي ذكرناها للقرآن الكريم فقد عمل الحديث كما عمل القرآن على نهاد اللغة وتحضرها وجعلها صالحة ،

لكل ما جد من علوم وثقافات، وحضارات و LANGUES، وكما كان للقرآن فضل عظيم في إيجاد كلمات جديدة لم تكن معروفة للعرب قبل الإسلام كذلك الحديث قد وضع الفاظ جديدة لما استحدث من المعانى الدينية، والفقهية، وزاد فى اللغة الفاظاً وأجرى فيها اشتراكات، كما توسع فى معانى بعض الفاظها بما لم يعهد قبله، فكان للغة مادة جديدة زادت فى ثروتها اللغوية.

من ذلك تسميتها "صفر الأول" ، محرماً وذلك حين أبطل الإسلام النسي، وحثّ تحريم القتال وكذلك وصفه (١) لفرس ركبه بأنه "بحر" يعني لا ينقطع جريه، واسرعاه، وكذلك كلمة "الصبر" (٢) بمعنى الشق في قوله ،

"من أطلع من صير باب فقد ذمر" يعني دخل . يقول أبو عبد الله "لم يسمع لهذا اللفظة إلا في هذا الحديث. وكذلك وصفه "الزانية بالزمارة" في حديث أبي هريرة (٣) أن النبي (٤) نهى عن كسب الزمارنة. يقول "تعجب الزمارنة هي الزانية، وسميت بهذا الاسم لشبيوه أمرها كانوا تنفس في بيوت، وهذه اللفظة لم تسمع إلا في هذا الحديث.

هذا إلى جانب الفاظ كثيرة جرت على لسانه - عليه الصلاة والسلام - في بيان الشريعة وفقها. كما نجد النبي (٥) قرة عجيبة على التشبيه، والتمثيل، وذلك في مثل قوله (٦) : "المؤمن هبون ليبون كالجمل الأنف إن قيد انقاد وإن أنيخ استباح على صخرة" ، قوله (٧) ،

" أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم" .

وقوله (٨) ، "لو ألمكم كنتم تركتون على الله حق توكلوا لرزقكم كما شرقي الطير تذدو خياماً وتتروح بطاناً" ، قوله (٩) ، مثل المؤمن كالنخلة لا يأكل إلا طيباً ولا يطعم إلا طيباً" . قوله (١٠) ، "المرأة كالضلوج إن رمت قوامها كسرتها" .

ومن قوله (١١) ، "الناس سواسية كأسنان المشط" .

أثر الحديث : -

إن أثر الحديث كثير ومبثوث في كلام الصحابة - رضي الله عنهم - وفي خطابهم خاصة في أسلوب من كثرا خلط لهم به، وملازمهم له، أو كثرت روایاتهم عنه مثل سيدنا

(١) الصبر : الشق ، والثقة ، وصير الباب خرم ، وثقة والثقة فيه .

♦ دراسات في الأدب ♦ في عصر صدر الإسلام

"أبي بكر" عليه، وعمر بن الخطاب، وعثمان، وعلي وأبي هريرة، وعائشة، وعبد الله بن عباس، رضي الله عنهم أجمعين.

هذا وللحديث مثل ما للقرآن فضل كبير، ولختنا القمراء، وصادنا الدمعاء، وتلك يتجلى في حفظها هنا العصر المأذن، والمساحة الزمنية الواسعة الذي لا ينتظر أن يزولا لأنهما أي القرآن والحديث منبع الدين وموطن التشريع، وموضع الاستشهاد، ومحل الاقتباس تلك بالإضافة إلى عناية المسلمين الفائقة بالعلوم الشرعية والعربية. تلك العناية التي هدفها وغايتها الحفاظ على "القرآن والحديث" حتى يبقى للأجيال المتعاقبة من المسلمين سالمي البناء، معروفين وغير مجهولين. وهذا من تدبير المولى - سبحانه وتعالى - لحفظ دينه، وبقاء كتابة ما بقى من الحديث.

الشعر في عصر البعثة الإسلامية

ظهور الإسلام أثار الجدل : -

إن ظهور الإسلام كان نهضة جديدة تناولت نواحي الحياة العربية كلها، الدينية والاجتماعية والسياسية والأدبية. ثم تناولت الحياة البشرية كلها بعد ذلك. ذلك لأن الإسلام رسالة بشرية عامة ، وهذه النهضة اقتضت معارضه من ناحية، ومؤازته من ناحية أخرى، يعني كان لها خصوم وأنصار. وقد كان الخصوم أول الأمر كثرة وعنيفة وقوية ، وذلك الأمر يستتبع نهضة أدبية تلازم هذه الدعوة ويظهر فيها الجلل والخطابة والشعر. وقد كان ذلك كله طبيعياً وواقعاً لا شك فيه، لذلك كان على مؤرخي الأداب أن يقفوا عند هذه الفترة الانتقالية لبيان وجه الحق فيها ولاسيما ما شاع من أن القرآن حرم الشعر وصرف الناس عنه.

يقول "أبن خلدون" في الفصل السادس من آخر مقدمته عن الشعر و قوله ما نصه، "أن انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنشرزماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي ﷺ وأئب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى دينهم الأول ".

يستفاد من كلام " ابن خلدون " ثلاثة أمور : -

- ١- أن العرب انصرفوا عن الشعر عند مبعث الرسول ﷺ لأنشغلهم بأمر الدين والنبوة ، وماراعهم من بلاغة القرآن ، فشغلو عن الإنتاج الأدبي شعراً ونثراً .
- ٢- إن الدين لم يحظر الشعر ولم يحرمه .
- ٣- إن الرسول ﷺ كان يشجع الشعر ويشجع عليه .

على أن المشهور أن الدين حرم الشعر لقوله تعالى : "والشعراء يتبعهم الغاون " . قوله سبحانه : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " . وفيما صر "ابن خدون " آخر كلامه فليس من الحق المطلق أن نوافعه على كلامه ، وإنما الرأي يلاحظ ما قلناه عن هذه النهضة الجديدة وما تستلزمها من نهضة أدبية " والواقع أن مدة "مكة" كانت جدلاً نثيرياً بين الرسول (ﷺ) وقومه من "قريش" ثم كانت الخطابة تصدر عن الرسول (ﷺ) في الغالب أحياناً ، وأما الشعر فلم يكن "لقرىش" منه خطٌ ذو خططر لذلك بقى كما هو في "مكة" قبل الهجرة فإذا لا يقال عن فنون الشعر هذا أن سببه الدين ، بل المسألة ليست إلا نوعاً من مسايرة الحالة القديمة "لقرىش" فلما كانت الهجرة ووقفت المدينة أمام مكة أو الانتصار "أمام" "قريش" ثار الشعر ونهض نهضة قوية ونشأ من ذلك "مرستاً" مكة والمدينة " كما هو معروف مشهور وظهرت شاعرية "قريش" أمام شاعرية الانصار ، ولم يكن لا عليها ولا لها ليس ذلك معقولاً أبداً .

والواقع أن الدرس التاريخي يدلنا على أشياء عجيبة منها إظهار الشاعرية القرشية كما يلي واظهار شعراء لم يعرفوا من قبل ومنها أن الشعر يتخذ الدين موضوعاً له يناسب عنه ، بل شعراً يقال حتى في الربدة نفسها وفي أيام الغزوات والفتح الأولى حتى العصر الأموي ذلك "حسان بن ثابت" ثم "كعب بن مالك" ، و"عبد الله بن رواحة" أقاموا أنفسهم شعراء الرسول "مدرسة المدينة" يدفعون عنه قريشاً ويقفون لشعراء مكة ويفحمنونهم .

وأولئك "عبد الله بن الزبيعى" ، "ضرار بن الخطاب" ، "عياس بن مرداش" ، و"عمرو بن العاص" ، وأبو سفان مدرسة مكة ، وغيرهم يقفون في وجه الدين ورسوله وشعراً بعد الهجرة ، تجد شواهد ذلك في سيرة ابن هشام ، وفي الشعر الذي قبل حول الغزوات "كيدر وأحد" ، والخدنق وسوها .

فالقول بأن العرب انصرفوا عن الشعر وشغلو بالأحداث والقرآن قول لا يسلم كما رأيت ، بل المفترض أن تلك الأحداث تستلزم الشعر وتشجع عليه ، وإن

كنا نرى شاعراً انتصر عن الشعر إلى القرآن ، فذلك "لبيد" كما يروى أحياناً وهو استثناء يثبت القاعدة ، "ولبيد" على كل حال لم يهتم بالشعر بعد الإسلام ، حتى صفووا له بيتاً واحداً في الإسلام إن صحت الروايات . هذا هو الوجه الذي يؤيده الواقع .

الاحتجاج بالأية و موقفنا منه : -

إن الدين لم يحظر الشعر حظراً مطلقاً كما يتوهם الناس ، والذين يحتاجون
بالآية ، ﴿وَلَشَرِمَةٍ يَنْعِمُهُمُ الْقَوْمُ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]

فإنهم أن القرآن انتصر لجامعة من الشعراء.....إلا آخرها ، مما يدل على أن الدين لم يحرم بتاتاً الشعر ولعله حرم منه ما أتى بالشعر وصرف عن الإسلام . كذلك الذين يحتاجون بالأية الثانية ، لم يراعوا أنها نزلت تتنفس الشعر عن القرآن وعن الرسول ﷺ إنه شاعرون القرآن شعر ، فنزلت الآية تتنفس الشعر عن مسلك الرسول ﷺ وخلفائه من الشعر كان يستمع إلى الشعر ويقول لحسان :

" ما منع الذين نصروا الرسول بأستتهم أن يمنعوا بالستهم " . يريد الانصار وحسان بن ثابت . فكان " حسان وكعب وابن رواحة " صدى هذه الكلمة وأكثر شعر حسان الإسلامي كان في مدح الرسول ﷺ ورثائه والدعوة له والذود عنه ، فكان شاعر الرسول حقاً ، ويمكن قراءة ذلك في مقدمة دلائل الإعجاز .

لم يكن لقرיש شعر في الجاهلية : -

إن الإسلام كما أشرنا قبلأً أظهر الشاعرية القرشية وقوتها فمن المعروف كما يقول " ابن سلام " أن قريشاً لم يكن لها في الجاهلية حظ من الشعر وقد يرجع ذلك إلى حياتها المطمئنة البعيدة عن الأحداث التي تثير العواطف أو إلى انشغالها بالتجارة والسياسة فانصرفت عن هذا الفن الجميل الذي احاطت قيمته أحياناً ، أو إلى انعدام قيمتها الشعرية فبقيت ملكتها خامدة حتى بعثها الإسلام .

ويلاحظ أن هذه القوة قد بدت بعد الهجرة حين وقف الانصار في "بدر" وأخذوا يفخرون بالنبي (ﷺ) ويدافعون عنه على لسان "حسان، وكتب، وابن رواحه". فقام من قريش جماعة يردون على شعراً الانصار أخصهم "أبوسفيان، و عمر بن العاص، وعبد الله بن الزيعري، وضرار بن الخطاب" وهذا الشعر نفسه كان جاهلياً في الغالب هو فخر وحماسة وهجاء على مثال الشعر الجاهلي ، فمعاناته بأس وكرم ونجدة على أنه كان قليلاً هيناً ولعل أول شاعر قرشي وقف بين حام الشعراً بمنكب ضخم هو "عمر بن أبي ربيعة".

مدرسستي مكة والمدينة وطابع شعرهما :-

وهنا نسجل ظاهرتين :

الأولى ، هذه الشاعرية القرشية التي مثلت مدرسة "مكة" مقابلة لمدرسة "المدينة" التي مثلتها الانصار.

الثانية ، أن هذا الشعر الذي صاحب النهضة الإسلامية أول ظهوره لم يكن شعراً دينياً بالمعنى الصحيح وإنما هو شعر عربي يسجل العواطف التي كان الجاهليون يسجلونها ، ومع ذلك ففيه شيء جديد هو أن مصدر هذه الخصومة التي وقعت بين قريش والنبي (ﷺ) ليست هي الأشباء التي كانت مصدر الخصومات الجاهلية . هي خصومة أساسها الدين لا العصبية ولا المذهب ولا الرياسة القبلية فمن الطبيعي أن يعتذر المسلمين بدينهم وأن ينكر القرشيون عليهم ذلك ، وأن يقوم الشعر بتقييد ذلك .

كذلك تجد في هذا الشعر ملاحظة طريفة هي أن هؤلاء الشعراء من أنصار النبي (ﷺ) الذين أشرنا إليهم كانوا معروفين بالشعر قبل الإسلام ولا سيما "حسان" هؤلاء الشعراء كانوا يهجون "قريشاً" ويرددون عليهم صيحاتهم الشعرية . وكانوا يذهبون مذهبين متقابلين . كان "حسان بن ثابت" وكتب بن مالك "في الغالب يهجوأنهم على النحو الجاهلي ، فيढّميهم" حسان "في أحاسيمه وأنسابهم

ونجدهم ، وكان هجاؤه لذلك أشد عليهم قبل أن يسلمو فلما أسلموا هان شعره عليهم ، إذ كان صورة جلية برأوا منها بالإسلام فلا عليهم حين ذكر بعد فوات وقتها ، وكان "عبد الله بن رواحه" يغيرهم بترك الدين والهدي بالخروج على الإسلام فلم يبالوه أولاً ما داموا جاهلين كافرين حتى إذا أسلموا خافوا شعره لأنه عار عليهم يرميهم بالتقسيف في عقيدتهم الرسمية الأخرى وكلا النوعين كان أقرب في أسلوبه إلى النسق الجاهلي لم يحظ بنضج فني جديد .

كذلك يلاحظ أن شعر "قريش" لم يكن في الكثرة كما يرى أو يتوجه فيقول "ابن سلام": "إنهم تکثروا من الشعر وأضافوه إلى شعرائهم".
كما يقول، "إنه شعر لئين يمكن تقليله، ويصعب تمييزه" لذلك تجد "ابن هشام" بعد رواية قصائد مطلولة تسب إلىه يقول: "أكثر علماء الشعر ينكرون هذه النسبة".

إن الإسلام يحكم طبيعته ونهضته كما نهض بالشعر واستدعاه موضوعاً فإنه أضعف شعر بعض الشعراء شكلاً، وحسان بن ثابت . نفسه دليل ذلك ، ومن المشهور بين المؤرخين أن "حسان" في الجاهلية أشعر منه في الإسلام : قال الأصماعي ، "الشعر تکد يقوى في الشر ويسهل ، فانا دخل في الخير ضعف ولأن ، هذا "حسان" فُحُل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقطوا شعره".

لماذا ضعف شعر "حسان" في الإسلام :-

قبل "لحسان" لأن شعرك إذ هرم في الإسلام يا أبا الحسام ، فقال للقاتل ، "يا ابن أخي ، إن الإسلام يحرج عن الكذب ، أو يمنع من الكذب ، والحق إن غالب شعر حسان كان في الإسلام دون مستوى الجاهلي ولعل أسباب ذلك : إضطراره إلى الارتجال كثيراً ليرد على خصوم الرسول (ﷺ) المهاجمين .
١- كبر سنه ، وضعف مواهيه الفنية ، لأن الحيوية المادية ذات أثر قوى في قوة الشعر وروعته .

٢- وقوف الدين بالفن عند حد الفضيلة والدعوة إليها ، حتى لقد يستحب الشعروعطًا وإرشادًا ، وذلك يبعد بالشعر عن طبيعته العاطفية الحرة .

٣- ثم ، وهذا أهم شيء أن "حسان" كان بين طبعتين : جاهلية قديمة ناضجة ، وأخرى إسلامية حديثة ، والشعر ليس شيئاً يلقي في النفس القاء ، وإنما يتبع منها بقعة الطبع ، وحصول الثقافة الخاصة .

فكان "حسان" يغالب نفسه ، ويحملها على محمل نفس فني جديد ومعان ، وموضوعات جديدة ، وأسلوب قديم لم يتغير ، فكان يسقط بين كرسيين أي بين الاتجاهين .

ومثله في ذلك الشاعر "النابغة الجعدي" وإن كان مغلباً في الهجاء ، وإنما بهذه النقطة فلاحظ أن الشاعر "لبيد بن ربيعة" قد ترك الشعر ، وانصرف عن العناية به في الإسلام ، فهذا مثل في تأثير القرآن في الشعر تأثيراً عكسياً مع أنه جزئي .

٤- إن جماعة من شعراء الأعراب أسلموا معايرة للناس ، طوعاً أو كرهاً مثل "الخطينة" الذي أسلم لأن من حوله أسلموا ، وربما كان ضعيف العقيدة

فارقـتـ بـعـدـ وـفـةـ الرـسـوـلـ (صـ)ـ وـالـهـ يـنـسـبـ هـذـاـ الشـعـرـ ،

أعـنـارـسـوـلـ اللهـ مـاـكـانـ بـيـنـناـ	فـيـالـعـبـادـ اللهـ مـاـلـأـيـ بـكـرـ
أـبـورـشـاـ بـكـرـاـ إـذـاـ مـاتـ بـعـدـهـ	وـتـلـكـ لـغـزـ اللهـ قـاصـمـةـ الـظـهـرـ
فـهـلـأـ رـدـدـتـمـ وـفـتـنـاـ بـزـمـانـهـ	وـهـلـأـ خـثـيـمـ حـسـنـ رـاعـيـةـ الـبـكـرـ

وكان "الخطينة" يعيش الحياة الجاهلية ويعيها حباً جماً ، لما فيها من حرية غير خاصة لسلطان سياسي ولا لتقاليدي دينية . وكان يحب ما في الجاهلية من صلات وهبات وشراب رافعاً عقيرته بالشعر مادحاً أو هاجياً أو متقدلاً .

هذا الشاعر قد بقى شعره جاهلياً كما هودون أن يتأثر بالإسلام في جملته ولم يتورط فيما تورط فيه غيره من الشعراء من الناحية الفنية حتى عد "الخطينة" زعيم المخضرين ، وقادتهم لدى بعض التقاد .

فالواقع أن "الخطبنة" كان مخلصاً لفنه أكثر من إخلاصه لدينه، لذلك يبقى شعره مستوياً لا تفاوت فيه، شأنه في ذلك شأن الشاعر "القطامي" من الأسلاميين، والشاعر "طرفة بن العبد البكري" و"زهير بن أبي سلمى المزنى" من الجاهليين.

والنتيجة الطبيعية كما سبق أن مدة الجيل الأول لظهور الإسلام كانت من الناحية الأدبية امتداداً للعصر الجاهلي، وبخاصة في الشعر، ونحن حين نقف لديها، لا تقف عند عصر جديد واضح المعالم والأركان، لذلك اختلف مؤرخوا الأدب أين يضعون هذه الحقبة من تاريخه: أهي امتداد للعصر الجاهلي وتكميل له أم هي فترةً إسلامية جديدة أم هي حقبة بين الإثنين وهي عصر المخضرمين؟ رأي ابن سلام الجمحي في الحقبة الإسلامية: -

إن ابن سلام الجمحي، في كتابه "طبقات الشعراء" فقد أضاف هذه الحقبة من الزمن إلى العصر الجاهلي، وأدخل شعراءها من طبقاته خاضعاً في ذلك لنشأتهم الأصلية، ومذاهبهم الفنية، وعد الأسلاميين الذين نشأوا في الإسلام وتآدوا بآدابه، أو نتفقوا بثقافاته، وأدبه الكريم من القرآن الكريم والسنة وأتصلوا بأحداثه التاريخية والسياسية، فبدأهم بالشعراء "جريرو والفرزدق، والأخطل" من الذين تعدهم الآن من شعراء العصر الأموي.

رأي ابن رشيق القمياني:

أما ابن رشيق القمياني في كتابه "العمدة في محاسن الشعر ونقده" فقد عد هؤلاء الشعراء طبقة خاصة سماها "طبقة المخضرمين" والمخضرم هو الذي عاش شطراً من حياته في الجahلية، وشطراً آخر في الإسلام.

تم توسيع في معنى الكلمة فأصبحت تطلق على كل من حضر عهدين متباينين ومخالفين حيث يقول: "طبقات القراء أربع".

"جاهلي قديم، ومخضرم، وأسلامي، ومحدث" ثم صار المحدثون طبقات "طبقة أول، وطبقة ثانية" على التدرج، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا، وهو

تقسيم تغلب عليه الناحية الزمنية ، وإن لم يخل مطلقاً من ملاحظات فنية تلائم هذه العصور التاريخية وكون أن هذه الحقبة الزمنية من حقب التاريخ الأدبي "عصرًا إسلاميًّا" خالصاً من الناحية الأدبية فإنه غير ميسور إلا أن يلاحظ في تلك التواхи الأخرى "السياسية" ، أو أن تُعد هذه مقدمة للعصر الإسلامي الذي تبدأ مظاهره في منتصف القرن الأول الهجري يعني بذاته مظاهره الحقة مع ظهور الدولة الأموية ، والآن فإن العصر الإسلامي يبدأ بعد مضي جيلٍ مُنْذَ البعثة ، أو بظهور الجيل الجديد الذي تربى في ظل الإسلام وتتأدب بآدابه وعلى هذا فمن الممكن تقسيم الشعراء الذين ظهر الإسلام وهم شعراء إلى ثلاثة طوائف ، -
ملائقتان متلاحقتان، ومتدافعتان، وهما طائفة الأنصار المدافعة عن الرسول (ﷺ) والمناصرة لدينه، وطائفة المكين : الهاجية لرسول الله (ﷺ) والمهجية لدعوته وكان من آثارهما كثرة الشعر في مكة والمدينة .

اما الطائفة الثالثة : فهي التي بقيت تقول الشعر في إسلامها كما كانت تقوله في جاهليتها ومن هؤلاء الشعراء "أبو دعبد الجمحي" وكعب بن زهير والنابغة الجعدي، ومحن بن أوس، وأبن مقرئ الضبي، وعبدة بن الطيب، وعمرو بن معد بن كرب، وتمم بن ذيوره، والعباس بن مرداش، والخطيئه" وغيرهم كثير مما يطلق عليهم الشعراء "المخرمون" يعني الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وذلك من قوله "ماء حضر" وذلك إذا تناهى في السعة إلى الكثرة ، لتناولهم العصرين . وأصل الخضرمة هم قوم وفدوا على رسول الله (ﷺ) وقد قاموا بقطع آذان إبلهم فلما وصلوا إلى مجلس رسول الله (ﷺ) قال هؤلاء المخرمون، يعني أن قطع آذان إبلهم يحمل معنى ساميًّا عظيمًا ، وهو أن هؤلاء قطعوا كل صلة لهم بالكفر والجاهلية واعتنقوا الإسلام دينًا فامنوا بالله، وصدقوا برسول الله (ﷺ) وهذه هي الفتة الثالثة : وهي لم تتبع كثيرة في شعرها الإسلامي عن المنحى والطريق الذي كانت تنتهجه وتنحوه في شعرها الجاهلي بخلاف الفتاتين السابقتين حيث إن البنون شاسع والمفارق بعيد بين شعريهما "في الجاهلية والإسلام" وذلك لتبادر

الغرض اختلافه في العهدين، ولاختلاف المعانى أيضًا الذى كان يقتضيها هنا
الثابن، والبك بعض الأمثلة لتوضيح ما ذكرنا آنذاك

يقول الشاعر "ضرار بن الخطاب" في "واقعة بدر الكبيرة":

عَلَيْهِمْ حَدَا وَالْأَذْفَرُ فِيهِ يَمْنَارٌ
أَصْبَرُوا بِنَذْرٍ كَلَمْمَةً ثَمَّ مَسَارٌ
فَإِلَى رِجَالٍ بِعَدْهُمْ سَخَافَرٌ
بَنِي الْأَوْسَ حَتَّى يَتَقَوَّلُ النَّفَرُ ثَمَّا
لَهَا بِالْقَدْرِ وَالْمَدَارِ عِينٌ زَوَافَرٌ
وَكَفِيلُهُمْ لَا الْأَمْلَى تَاصِرٌ
لَهُنَّ بِهَا لَيْلٌ عَلَى النَّوْمِ سَاهِرٌ
بَوْسِنْ دَمْ بَمْتَنْ يَخَارِينْ مَسَارٌ
بِالْحَدَّ امْتَنْ جَنَّكُمْ وَهُوَ ظَاهِرٌ
يَحَالُمُونَ فِي الْأَرْوَاءِ وَالْمَوْنَ حَاضِرٌ
وَلَنَاعِي عَلَيِّ وَسْطَنْ لَتْ دَاهِرٌ
وَسَعْدَنْ لَدَا مَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حَاضِرٌ
بَكُوَّلَوْسَنْ وَالْأَنْجَارِ حِينَ قَاهِرٌ
لَدَا غَنْتَ الْفَنَّابِيَّ كَنْبَرْ وَغَامِرٌ
حَنَادَهُ الْهَيَاجُ الْأَطَابِنُونَ لَأَكَاهِرٌ
عَجِيزَتْ لَفَخُرُ الْأَوْسَ وَالْحَيَنَ دَاهِرٌ
وَفَخِيرَتْ بَنِي النَّجَارِ وَلَنْ كَانَ مَعْشَرٌ
لَهُنَّ نَكَّهَ قَنْتَيْ غُورِدَتْ مِنْ رِجَالَنَا
وَتَرْزُوِي بِنَا الْجَرَدُ الْعَلَاجِيجُ وَسَطْكُمْ
وَرَوْسَطَ بَنِي النَّجَارِ مَسَوقٌ نَكْرَمَا
لَفَنَرُكَ صَرْغَنِيْ تَعْصِبَلُ الطَّيَّرُ حَوْلَهُمْ
وَتَكْهِيمَمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرَبَ بِمَنْوَهَةٍ
وَتَلَكَ أَلَا لَفَزَالَ مَسِيقَنَا
لَهُنَّ تَفَقَّرُوا فِي بَسَوْمِ بَدْرِ فَلَنَسَا
وَبِالْفَلَرِ الْأَخْذَارِ هَمْ لَوْتَسَادَهُ
بَغْدَلَوْ بَكْرَ وَخَنْزَرَ فِيهِمْ
وَيَنْدَعِي أَبُو حَفْصِ وَعَفْلَانَ مِنْهُمْ
لَوْلَكَ لَأَسَنْ تَنْجِبَ فِي دِيَارِهَا
وَلَكَنْ لَوْهَمْ مِنْ لَوْيَيْ بَنْ غَالِبِ
هَمْ الْطَّاعِنُونَ لَهُنِّ في كُلِّ مَغْرِبِي
فَلَحَاجَيَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكَ، أَجَمَّ بَنَ سَلَامَةَ فَقَالَ :

عَيْنِتُ لِأَنْسِرِ اللَّهِ وَلِلَّهِ قَارِئٌ
فَقُضِيَ يَوْمٌ بَذِيرٍ أَنْ تَلَاقِي مُعْشَراً
وَفَدَ حَسْنَوَا وَالسَّنَقُورَا مِنْ يَلِبِيمٍ
وَمَسَارَتِ بَلِيتَا لَا تَخَوَلُ غَيْرَتَا
وَقَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَالْأَوْسُونَ حَوْلَةٌ

وَجَمِيعُ بَنِي الْخَارِجِ تَحْتَ لَوْلَاهِ
 فَلَمَّا لَفِيَهُمْ وَكُلُّ مُجَاهِدٍ
 شَهِدُوا بِاللَّهِ لَا رَبَّ غَيْرَهُ
 وَقَدْ غَرِبَتْ بِعِصْنِ خَفَافِ كَانُوهَا
 بِهِنْ أَبْدَاهَا جَمِيعُهُمْ فَقَبَّلُوكُلُّهُمْ
 فَكَبَّلَهُمْ لَوْجَهُمْ مُنْرِيًعاً لِوَجْهِهِ
 وَشَيْئَةٌ وَالثَّيْمَيْ غَادِرُوكُلُّهُمْ فِي الْوَغْيِ
 فَأَمْسَوْهُ وَقُلْوَهُ الْنَّارِ فِي مُسْتَقْرِهِمْ
 تَطَهَّرُ عَلَيْهِمْ وَهِيَ قَدْ شَبَّ خَطَبَهَا
 وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ إِنَّهُمْ
 وَلَمْ يَرَوْهُ اللَّهُ أَنْ يَهْكُمُوا بِهِ
 وَقَالَ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبَّعِيِّ" يَبْكِي فَتَلَى بَدْرَ :

مَاذَا عَلَى نَبْرٍ وَمَاذَا حَوْنَهِ
 تَرْكُوا لَيْهَا خَلْقَهُمْ وَمَلِيَّهُمْ
 وَالْخَارِجُونَ الْقَاهِنُونَ يَتَرَقُّبُونَ وَجْهَهُ
 وَالْعَاصِمَيْ بَنْ مَنْبِيَهُ ذَارَةٌ
 شَمِيَّ بِهِ أَعْزَافَهُ وَجَهَدَهُ
 وَإِذَا يَكُنْ بِكَ فَسَاعَهُ شَجَوَهُ
 حَيَا إِلَهَ أَبَا الْوَيْدِ وَرَهْنَهُ
 فَاجَابَهُ حَسَنَ بْنُ ثَابِتَ الْأَنْصَارِيَّ . فَقَالَ :

إِنِّي بَكَتْ عَيْنَكَ ثُمَّ تَبَارَكْتَ
 بِهِنْ تَعْلَلَ غُرْوِهَا سَجَامْ
 هَلَا ذَكَرْتَ مَكَارِمَ الْمَلْفَوْمَ
 سَمْعَنْ لَخَلَاقِ صَنَاقِ الْأَفْدَامْ
 وَلَيْزَ مَنْ يُولِي عَلَى الْفَسَامْ
 كَانَ الْمَدْخَنْ ثُمَّ غَيْرَ كَهْلَمْ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَبْكِي حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ :

بكت عيني وحق لها يكاما
على امتداد الارض غداة فسالوا
اصحيب الشملون به جيمعا
لها يتعلى نك الاركان هدت
عليك مسلام رتك في جنан
الا ياخذهم الاخيار متبررا
رميتوه الله منظير كريمه
الا من ميلع على لوتا
ويفيل اليوم ما غرقوا وذاقوا
سميت صدرنا بثواب تاجر
غداة ثوى ابو جهل صريرا
ونفحة والثانية خرا جيمعا
ومنرك كما امرتة مقطوعا
وهقام بدمى ربعة ساتلوها
الا ياخذ فاكبي لا ثانى
الا فما هذ لا يهدى شمامتا

قال "أبو دعاء الحميج" مدح رسول (ﷺ) :

ذهب وكل بيوته ضائعا
إن النساء بمثابة خاتمة
سيّان منه الوفر والغذاء
ضيّعها وليس تحسنه سفرا

و قال "كعب بن زهير" :-

يَانِتْ مُشَاعَلْ قَاتِلِيْ الشَّوَّمْ مُشَبِّولْ **مُشَيْهِ شَرِّهَا لَمْ يَفْدِ مَكْبُولْ**

لَا اغْنِيَنِي الظُّرُفُ مَكْحُولٌ
لَا يُشْتَكِنَ قُصْرُ بَنَاهَا وَلَا طُولُ
كَلَّهُ مَهْوُلٌ بِالرَّوْحِ مَعْطُولٌ
صَافٌ بِأَطْبَعِ أَضْخَنِي وَهُوَ مَشْعُولٌ

وَمَا مَسْعَلًا شَدَّادَةُ الْبَنَينَ إِذْ رَحَلُوا
هَيَّاهَ مَقْبِلَةُ عَجَزَاءُ مُذْبَرَةٍ
تَجْلُّ عَوَارِضَنِ ذَي ظُلْمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
شُجَّتْ بِذِي شَوَّمٍ مِنْ مَاءِ مَحْرَمَةٍ

إِلَى أَنْ قَالَ :

تَسْعِيُ الْوَشَاءُ بِجَنِيَّهَا وَقُولُّهُ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كَنْتُ أَمْلَهُ
فَقَتَّلُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا تَبَاكِمُ
كُلُّ أَبْنَى أَشْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُ
أَبْشِرْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَكَوَعَدَنِي
مَهْلًا هَذِهِ الَّذِي أَعْطَالَكَ نَاقَةَ الْ
لَا تَلْخَدَنِي بِالْأَقْوَالِ الْوَشَاءَ وَلَمْ
لَذَّ أَقْوَمْ بِأَمْرٍ لَوْ يَقُومُ بِهِ
لَظْلُّ يَرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
حَتَّى وَضَعَتْ يَمْنِي لَا تَزَاغَهُ
لَذِكْرُ أَهِبَّهُ عَنِّي إِذْ أَكَلَمَهُ

إِلَى أَنْ قَالَ :

إِنَّ الرَّسُولَ لَسِيفٌ يَسْتَضَأُ بِهِ
فِي عَصَبَةٍ مِنْ قَرِيبِهِ قَالَ قَاتِلُهُمْ
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَانُ وَلَا كَثَفَ
شَمُّ الْعَرَائِينَ لِيَطَالُ لِيَوْسِهِمْ
بِيَضْنَ سَوَابِعَ قَدْ شَكَّ لَهَا حَلْقَ
يَمْشُونَ مَشِيَ لِلْجَمَالِ الزَّهْرِ يَعْصِمُهُمْ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحَهُمْ

لا يقع الطعن إلا في نورهم
ومن لهم عن حياض الموت تهاليل
وقال "النابغة الجعدي" من قصيدة مدح فيها الرسول (ﷺ) :

خليلي عوجاً ساعنة، وتهجرا
ولأوما على ما أحدث الدهر، لو ذرا
فخفاً لرواعك الحوادث، أو قمرا
فلا تجزعاً مما قضى الله، وأصيرا
قليل، إذا ما الشيء وئي ولدرا
تعير شيئاً، غير ما كان فدرا
ويطلو كتاباً كال مجرة تيرا
وسيرت في الأحياء مالم تُسيراً
ومن حاجة المخزون أن يتذكرها
لرى اللوم منهم ظاهر الأرض مقرا
شناير مما شيف في أرض فقيرها
بنجران، حتى خفت أن انتمرا
ووجهة من الامر يقين أزهرا
مناصفة والحضور تم المختبر

إلى ان قال :

بلغنا السما متقداً وجوداً مشوداً،
وكيل معد قد احتط مسوقة
لمغري لقد اندزرت إزدا لاتها،
واعرضت عنها جبة، وتركها،
وما قلت حتى شال شتم عشيرتي
وخي لي بكر، ولا حي ملهم،

فقال النبي (ﷺ) : فلما ظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنـةـ . قال النبي (ﷺ) :

إن شاء الله .

ومن أحكم شعر "معن بن أوس" وأعفه قوله :-

لعمري ما أهونت كفني لريبة
ولا حملتني تحش فاحشة رجلي
من الدهر إلا قد أصبت قمي محببة
ولا ثقلي شفني ولا يضرني لها
ولا مؤثراً نفسى على ذي قربة
وأثر ضيقى، ما أقام على أهلى

وقال "عبدة بن الطبيب" يرثى "قيس بن عاصم المنقري".

عليك سلام الله قيس بن عاصم
ورحمة ما شاء أن يكرحها
إذا زار عن شحط بلادك سلماً
ولكنه بينان قوم تهشما

وقال "متمم بن نويرة" في رثاء أخيه "مالك" وهي طويلة :

جميل المحبها ضاحكة عند ضيفه
وقبور إذا القوم الكرام تقابوا
وكنت إلى نفسي لست حلاوة
وكل فتى في الناس بعد ابن أمها
وبعض الرجال نحلاة لا جنى لها

وقال "العباس بن مرداس" :

شرى للرجل التحريف فترى ترى
ويغبىك الطير، فتباشر
فما عظم الرجال لهم بغدر
بناث الطير لكتها فراها
ضياع الطير أطويها جسوماً
لقد عظم التغير بغدر لب
يمسرقة الصبي بكل وجبه

وَنَفْرِيَةُ الْوَيْلَةِ بِالْهَرْلَوِيِّ
فَلَا خَيْرَ لِتَبَهْ وَلَا نَكِيرٌ
فَلِيَ فِي شِرَارِكُمْ قَلِيلًا
فَلِيَ فِي خِيَارِكُمْ كَثِيرًا

وقال "الخطينة" في آل شناس . قوم بغرض :

وَقَدْ جَزَنْ خَوْرَا وَاسْتَبَانْ لَنَا نَجْدًا
عَلَىٰ غَصْنَابِ أَنْ مَنْذَنَكَ كَمَا صَنَدَنَ
أَنْتَ آلَ شَمَاسَ بْنَ لَأَيِّ وَإِمَّا
وَنَوْ الْجَدَّ مَنْ لَأَنَّوْ إِلَيْهِ وَمَنْ وَكَوْ
فَلِنْ شَقِّيْ مَنْ تَعَادِيْ صَدَورُهُمْ
يَسْوَسُونْ أَحْلَامَأَ بَعِيدًا أَنَّهَا
أَقْلَوْ عَلَيْهِمْ لَا إِيمَكِمْ
أَوْلَئِكَ قَوْمَ إِنْ يَشْوَأْ لَحْسَنَوْ لِلْبَسِيِّ
وَبَنْ كَانَتْ لَنْتَيِّ عَلَيْهِمْ جَزَرَوْ بَهَا
وَبَنْ لَعْنَوْ لَا كَسْرَوْهَا وَلَا كَدَرَوْ
مِنَ الدَّهْرِ رَوْلَأْمَمْ عَلَىٰ جَلْ حَادِثٍ
مَطَاعِنَ فِي الْهَيْجَاجِ مَكَثِيفُ الْحَدِيجِ
هَذَا وَقَدْ تَقْدِمَ أَنْ تَكْرَتَ أَنْ مَسْلِكَ الرَّسُولِ (ﷺ) وَخَلْفَانَهُ مِنَ الشَّعْرَكَانِ

سَلِيمًا، وَذَكَرْنَا تَشْجِيعَهُ لِـ "حسان بن ثابت" وَمَكَافَاهُهُ "كعب بن زهير" وَرَغْبَتِهِ
فِي اسْتِمَاعِ الشَّعْرِ مَا كَانَ لَهُ أَثْرَفِي نَهْضَةِ الشَّعْرِ.

فَلَقَدْ حَكِيَ "ابن هشام" أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) لَمَا قَالَ لِلأنصَارِ: مَا يَنْعِنُ الْقَوْمَ
الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَسْبَافِهِمْ أَنَّ يَنْصُرُوهُ بِالْسَّنْتَهِمْ.
فَقَالَ حَسَانٌ: أَنَا لَهَا وَأَخْذُ بِطَرْفِ لِسَانِهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا يَسْرِنِي بِهِ مَقْوِلُ بَيْنَ
بَصَرِي وَصَنْعَاءِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ تَهْجُوْهُمْ وَأَنَا مِنْهُمْ
وَكَيْفَ تَهْجُوْ أَبَا سَفِيَّانَ وَهُوَ أَبْنَى عَمِيْ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَسْلِكَ مِنْهُمْ كَمَا
تَسْلِي الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجَيْنِ فَقَالَ: إِنْتَ أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِأَنْسَابِ الْقَوْمِ مِنْكَ ،

فيحدثك حيث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم أهجمهم وجبريل معلمك ، فأخذ "حسان" يهجهوم ، وكثيراً ما كان يقول له (﴿١﴾) : شن الغارة علىبني عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غلس الظلام .

ولقد استمع رسول الله (﴿٢﴾) "لکعب بن زہیر" لاميته المشهورة (بانت سعاد) فغعا عنده وأثابه بردة اشتراها منه "معاوية" بعد وفاته بثلاثين ألف درهم وتداولها من بعده الخلفاء يلبسونها في الجمع والأعياد، بل لقد تأثر رسول الله (﴿٣﴾) حينما أشتدت "قبيلة بنت الحارث" أخت النضر وقد قتل بعد وفعة بدر ،

من صنف خمسة وأنت مؤلق
ما إن تزال بها التحابي تخلق
جات بواكيها وأخرى تخلق
أم كيف يسمع متى لا ينطق
في قومها والقليل فعل مترد
من القوى وهو المحيط المطلق
ياعز ما يقلو به ما ينفق
والحقهم إن كان عشق يعتنق
للهم أرحام هنالك شقيق
رسف العقبة وفسوغان مؤلق
ساريكم ابن الأبيلى مظلقة
البغ بغها ميتاً بإن تحوّلة
متى إلىك وغيره مشقوحة
هل يسمعني النضر إن ناديه
أمتحن واحبّر ضوء كريمته
ما كان ضررك لؤ مثلك وزرمدا
او كدت قليل فقير فلأنفهن
فالنصر أقرباً من لسرت فرالية
ظلت شيئاً بيديه قوشة
منيراً يقتلا إلى العترة مثلاً
قال لؤ يلغى هذا قيل قتله لم تكن عليه .

ولقد سار خلاؤه (﴿٦﴾) من بعده إزاء الشعر كما سار وما منهم إلا من نمثل
بالشعر أو قاله أو حضر على روايته وحضر على حفظه . وكانت السيدة *^٤

عائشة^{رضي الله عنها} "كثيرة الرواية للشعر حتى قيل أنها مالت حفظ شعر "لبيد" وكانت تقول :

"روا أولادكم الشعر تعذب المستهم و كانوا يحضون على حفظ ما هو حسن مفید ، ويعاقبون على ما هو شائن ضار . فضربوا على أيدي الشعراء الخارجين عن سياج العفة والدين بالهجو المقدح والتشبيب الفاحش ونعت الخمر ، وما إلى ذلك فهذا "عمر" حبس "الخطيئة" لإقداعه في هجاء "الزيرقان بن بدر" ولم يطلق سراحه على كثرة استعطافه، إلا قصيدة رق لها "عمر" وهي :

ما زلت أتُشَوِّلُ لِأَفْرَادِي بِذِي مَرْأَةٍ
الْمُفْتَنَ كَاسِبِهِمْ فِي قُبْرٍ مَظْلَمةٍ
لَنَّ الْإِمَامَ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ
لَمْ يَوْزِعُوكَ بِهَا إِذْ فَتَمُوكَ لَهَا
فَامْتَنَ عَلَى صَيْبَةٍ بِالرَّمْلِ مَشْكُنَتِهِمْ
أَهْكَى قَدْلَوْكَ، كَمْ يَتَسْبِي وَيَتَنَمَّ

وهذا "عثمان" ^{رضي الله عنه} حبس "ضابيء" بن الحarith بن أربطة، من بنى غالب بن حنظلة، بن البراجم، وكان استعار كلباً من بعض بنى جرول بن نهشل، فطال مكته عندـهـ، فطلبوهـ فامتنعـ عليهمـ، فعرضوا لهـ فأخذـوهـ منهـ، فغضـبـ ورمـيـ أحـدهـمـ بالـكلـبـ

واسـمـ الكلـبـ قـرـحانـ فـقـالـ

تَجْهِشُمْ دُونِيَ وَقُدْرُ حَرْجَانِ شُفَةٍ
فَارْتَقَهُمْ كَلْبًا فَرَأَخُوا كَائِنًا
وَقَلَّتْهُمْ مَا لَوْرَهُتْ مَتَابِعًا
فِي رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَلَفَنَّ
فَلَمَّا لَأَتَرْكُوكُمْ وَكَلَّكُمْ

فِيْكَ كُلُّ كِتَابٍ قَدْ ضَرَبْتَ بِمَا تَرَى
سَمِيعٌ بِمَا فَوَقَ الْفَرَائِشِ خَيْرٌ
إِذَا عَنْتَ مِنْ أَخْرِ الظَّلَلِ ذَخْنَةً
نَبِيْتُ لِهَا فَوَقَ الْفَرَائِشِ هَرِيرٌ

فاستعدوا عليه عثمان بن عفان، فحبسه، وقيل أنه مات في السجن.

وهكذا نجد أن الخلفاء قد حرصوا على حفظ الشعر وروايته للتلاميذه
أو تأديب النفس فحسب ، بل لأنهم وجدوا أن تعلمه ضروري لفهم القرآن ، فقد قال
" ابن عباس " ﷺ ، " اذا قرأت شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار

العرب ".

تأثير الإسلام في الشعر

لقد جاء الإسلام بالجد الذي لم يعرفه العرب ، فشغلوا أوقاتهم في تحصيل الدين، ونشر تعاليمه، وابطال كثير من عادات الجاهلية وأباطيلها وحرم عليهم الكذب، وشاشة الفاحشة في الناس، وقدف المحسنات كما قضى على العصبية التي بددت شملهم، وفرقت جمعهم، فكان لهذا أثر في تعطيل آلة الشعر وتغيير نعمتها، وفتور كثير من الأغراض القديمة، كتأريث العداوات، وذكر العورات، والوقوع في الاعراض والفحش الكاذب والهجاء المقدع .

كما كان للقرآن – وهو في الذروة - من الفصاحة والبلاغة أثر في اندهار كثير من الشعراء حتى بلغ بعضهم أن انقطع عن قول الشعر "لبيد" وهو فحول من فحول الجاهلية وروى أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، وهو،
الْحَمْدُ لِلّٰهِ إِذَا لَمْ يَأْتِي أَجْلَنِي حُسْنٌ كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ مِنْ بَلَاءٍ
ومن حديث "لبيد" أن "عمر بن الخطاب" رسوله أرسل إلى عاملة على
"البصرة" أن أرسل "لبيد والأغلب" ما أحدثنا في الإسلام ؟
فقال الأغلب ،

أرجوأ أتربيد لم قصيدة لقدر سمات هنـا موجودـا
وقال لبيـد : قد أبدـلـتـي اللهـ بالـشـعـرـ سـورـةـ الـبـقـرةـ وـالـعـمـرـ ، فـزـادـ عـمـرـ
فـيـ عـطـائـهـ ، فـبـلـغـ بـهـ أـلـفـيـنـ ، فـلـمـ وـلـيـ "ـمـعاـوـيـةـ"ـ قـالـ : أـوـتـدـعـنـ قـلـيـلـاـ ثـمـ تـضـمـ عـطـائـيـ
إـلـيـ عـطـائـكـ فـتـأـخـذـ عـطـائـيـنـ جـمـيـعـاـ ؟ـ

وـأـمـاـ مـنـ لـمـ يـنـقـطـعـ عـنـ قـوـلـ الشـعـرـ ، فـقـدـ تـرـكـتـ فـيـ مـفـاجـأـةـ الـقـرـآنـ أـثـرـاـ مـنـ
الـضـعـفـ ، كـمـ اـنـقـدـمـ الـكـلـامـ فـيـ "ـحـسـانـ"ـ .

ونستطيع بعد ذلك أن ندلل بعض أمثلة كان الشعراء فيها متأثرين بأسلوب القرآن سالكين نهجهم ، فالقرآن يقول ،

﴿وَلَا أُرِيكُمْ لَمَّا أَتَىٰكُمْ أُتُّرَىٰ فِي حَنْلَلِ مُبِيب﴾ [سورة العنكبوت: ٢٤]

ويقول : **﴿أَقَدْ جَاهَكُمْ رَسُولُنَاٰ إِنَّ أَفْعُلُكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ**

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ وَالْمُؤْمِنُكُمْ رَوْفٌ رَّجِيمٌ﴾ [التوبه: ١٢٨]

أخذ الأول "حسان" فقال في الرد على "ابن سفيان" حين هاج النبي (ص)،

هَجَنَّوْتَ مُحَمَّداً وَأَجْبَرْتَ عَنْهُ وَجَنَّدَ اللَّهَ فِي ذَلِكَ الْجَرَاءَ

أَنْجَوْتَهُ وَلَنَشَّتَ لَهُ يَكْفَأَهُ فَشَرَكَنَا بِخِلْرَكَنَا لِفَدَاءَ

هَجَنَّوْتَ مَهَارَكَأَيْرَأَهِيفَأَ لَمَنِ اللَّهُ شَيْئَهُ لِوَفَاءَ

أَمْنَ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مَنْكَمْ وَيَمْنَحَهُ وَيَنْصَرَهُ مَنْوَاهُ ؟

وأخذ الثاني أيضاً في رثاء رسول الله (ص) فقال ،

عَزِيزٌ عَلَيْهِ لَنْ يَجُورُوا عَنِ الْهُدَىٰ حَرِيصٌ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَهِمُوا وَيَهْشِدُوا

طَلْوَفٌ عَلَيْهِمْ لَا يَقْتَلُ جَانِحَهُ إِلَى تَكْفِي يَهْضُوا عَلَيْهِمْ وَيَهْمِدُ

فَيَتَّهَمُ فِي ذَلِكَ النَّوْرِ لَا يَعْدُهُ إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِّنَ الْمُؤْنَدِ مَفْصِدٌ

والقرآن يقول : **﴿فَلَمْ يَسْتَوْيِ الْأَعْنَانُ وَالْمَصِيرُ أَمَّا كُلُّ شَيْءٍ الظَّلَمَتْ وَالْأَرْجَأَ﴾** [الرعد: ١٦]

ويقول : **﴿وَلَا يَقْفَضُ لَهُ سَاجِنَاحَ الْأَذْلِيٰ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾** [الإسراء: ٢٤]

أخذ الاول "حسان" فقال ،

وَهَلْ يَسْتَوْيِ حَشَلُ قَوْمٌ شَفَهُوْرَا عَمَانِيْهِمْ هَذِهِ بِهَا كُلَّ مُهَمَّهُهُ

لَقَدْ فَرَأَتْ مُنْهَهُ لَنِي أَهْلِ يَشْرِبِ رِكَابٌ هَذِهِ حَلَّتْ عَلَيْهِمْ يَاسِدُ

وأخذ الثاني " معن بن أوس " فقال ،

فما زلت في لبني له وتعطشني
عليه كما تحشو على الولد الأم
وخفقني له مني الجناح تلقاً
لذاته مني القرابة والرحم
وصفتني على أشياء منه فربيني
وكظمي عن غبطي وقد ينفع الكاظم
والقرآن يقول : يُولجُ الْيَتَأَلِّفَ فِي النَّهَارِ فَيُولجُ النَّهَارَ فِي الْيَتَأَلِّفِ وَأَنَّ اللَّهَ سَيِّعٌ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾

[الحج: ٦٦]

أخذه " التابغة الجعدي " فقال ،

الحمد لله لا شريك له
من لم يتقها فقتله طلاقاً
المولج للليل في النهار وفي الليل
يبلل نهاراً يفرج الظلم
الخافض الرائع السماة على الأرض
لرض ولهم بين تحتها دعماً
والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ، ولا سيما في أشعار حسان " عبد الله بن

رواحه وأمية بن أبي الصلت ، وغيرهم من كانت له نزعة إلى الدين :

قال " عبد الله بن رواحة " ،

شهدت بـ لأن وعد الله حق
وأن النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء حق
وتحمله ملائكة شفاعة
ملائكة الله مسونين
كم اندجد أن الشعر فى صدر الإسلام قد بدأ فى روحه ومعاناته مملوءاً

بالتفوى والورع ، وتذكر البعث والجنة والنار .

يقول " بجير " أخوه " كعب بن زهير " ،

من مبلغ كعباً فهل لك في النبي
تلوم عليها بساطلاً وهي أخزم
فتتجو لأنك ان التجاء وشنتم
إلى الله (أنا) الغرئي ولـا اللات (وتحدة)
من الناس لأن ظاهر القلب منكم
لـذا يوم لا يتججو ولـا يـين بمـلـيـرـي
فـيـنـ زـهـيرـ وـهـوـ لـاـ شـيـءـ بـيـنـهـ

ويقول أبو ذؤيب المذلي :

أبا علييد رفع الكتاب

ويقول "كعب بن زهير" ،

سغى القوى وهو محبوب لآلة الفتن
فالنفس ولجدة والهم منتبه
لأنفه ما غاش مثذوه لآلة أهل
أين هذا التصوير البارع لحقيقة القضاء والقدر من قول والده " زهير بن أبي سلمي
" وهو من أحكم شعراء الجاهلية ، إذ يقول ،

سنت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حوالاً لا أبا لك يسلم
رأيت العتاليا خطب عشواه من نصب
حق الشعراً البعيدة ذفوفهم عن تهذيب الذين ظهر التأثير في شعرهم ، يقول
" الحطبة " .

ولست لري السعادة جمع مال
ونقسو للآله خير الزاد ذخراً
ولكن الذي يمضى بعمر فهراً
وقال الحطبة ، وهو أحكم بيت بالإجماع ،

من يقتل الخير لا يُغنم جنزي
لا يذهب الغرور بين الله والناس
وبعد، فقد يبدو للنظرسطحي أن يسرع تأثير القرآن الكريم في الشعر فيبدو
الشعر كله رقيقاً في أساليبه إسلامياً في روحه ومعاناته مع أن قسمًا كبيراً من
شعراء البداية الذين أسلموا معايرةً للناس طوعاً أو كرهاً ظل شعرهم في الإسلام
كما هو في الجاهلية فما سر تحقق سرعة التأثير ؟

١- منها ما أسلفنا أن الطفرة محال، وأن تجديد الشعر يسلطزم دراسة القرآن وتعاليم الدين وتشريها، وطبع الملوكات، النفسية والنسانية بطابعها، وذلك يحتاج إلى وقت طويـل، وهيـات أن يحدث ذلك في شهـور أو سـنوات، لذلك سنلاحظ أن من المـصـرـمـينـ من استـمرـتـ مـلـكـاتـ جـاهـلـيـةـ "ـ كـالـحـمـلـيـةـ"ـ وـمـنـهـمـ منـ تـرـكـ الشـعـرـ "ـ كـلـبـيدـ"ـ وـمـنـهـمـ منـ اـضـطـرـبـ بـيـنـ الـمـكـتـيـنـ حـتـىـ ضـعـفـ شـعـرـهـ "ـ كـحسـانـ"

٢- ومنها أن تأثير القرآن الكريم المنتظر كان يقـومـ وـقـفـاـ علىـ أولـذـكـذـينـ اـتـصـلـواـ بـالـرـسـوـلـ (ﷺ)ـ وـدـرـسـواـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ وـتـفـهـمـوهـ وـهـمـ .ـ أـوـلـاـ :ـ قـلـيلـ بـالـنـسـبـةـ إـلـىـ أـوـلـشـكـعـرـ الـعـرـبـ الـذـيـنـ أـسـلـمـتـ أـسـنـتـهـمـ وـلـمـ تـؤـمـنـ قـلـوـبـهـمـ،ـ أـوـ هـؤـلـاءـ الـبـدـوـ الـذـيـنـ تـشـبـسـواـ بـحـيـاتـهـمـ وـلـزـمـواـ كـثـيرـاـ مـنـ عـادـاتـهـمـ الـتـيـ حـارـيـهـ الرـسـوـلـ (ﷺ)ـ وـتـبـعـهـ فـيـ ذـلـكـ "ـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ"

ثـانـيـاـ ،ـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـأـقـرـيـبـيـنـ إـلـىـ الرـسـوـلـ (ﷺ)ـ كـمـاـ أـسـلـفـنـاـ لـمـ تـسـرـ إـلـىـ نـفـوسـهـمـ وـأـسـتـهـمـ مـلـكـاتـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ الـأـدـبـيـةـ فـلـمـ يـظـهـرـ شـعـرـهـمـ الـدـيـنـ إـلـاـ عـلـىـ الـسـنـةـ الـجـبـلـ الـجـدـيـدـ،ـ وـأـمـاـ "ـ حـسـانـ"ـ فـمـعـ أـنـهـ دـعـاـلـىـ الـدـيـنـ الـجـدـيـدـ وـتـعـلـقـهـ بـهـ لـكـنـ مـلـكـتـهـ الـدـيـنـيـةـ لـمـ تـكـنـ فـيـ قـوـةـ الطـبـعـ الشـعـرـيـ الـقـدـيمـ،ـ فـكـانـ هـنـاكـ فـرـقـ بـيـنـ مـلـكـتـهـ الـقـدـيمـةـ وـالـحـدـيـثـةـ.

٣- ومنها أن هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ بـالـقـرـآنـ مـخـلـصـيـنـ قـدـ تـلـقـوـهـ عـلـىـ أـنـهـ نـصـ قـدـسيـ معـجزـ لاـ يـكـنـ مـعـارـضـتـهـ،ـ فـكـانـ الـقـرـآنـ مـثـلـأـ عـلـىـ لـاـ يـطـمـعـ أـحـدـ فـيـ تـقـلـيـدـهـ،ـ فـاـسـتـغـنـواـ بـهـ عـنـ قـوـلـ الـشـعـرـ كـمـاـ حـدـثـ "ـ لـبـيدـ"

تطور النثر في عصر البعثة

تعريف النثر :

قبل الكلام في هذا الموضوع يجب أن نعرف كلمة نثر ما هي؟ وماذا يراد منها في هذا البحث؟ أمعناها المراد هنا اللغوي، أي كل كلام منتشر لم يتقييد بوزن ولا قافية،مهما يكن لفظه صحيحاً جميلاً أو لا،ومهما يكن معناه قيماً أو لا؟ أم معناه الاصطلاحى هو المقصود منه حين يطبق فى باب الأدب،ويراد به الكلام المنتشر المتميز بميزتين، المعنى القديم ، واللغز الصحيح الجميل .

وإذا كان المعنى الثاني هو المراد فهل نقف به عند ذلك النوع الأدبي أو الفني الذى يشبه الشعر فى أن كلاماً منها يرمى إلى التأثير ويقصد إلى إثارة الشعور، أو يتناول أيضاً ذلك النثر العلمي ، الذى يرمى إلى التثقيف والتعليم ، كالفلسفة والمدين والتاريخ والنقد، وإن لم يتخلص من عاطفة واحساس .

أنواعه :

ومعنى ذلك أن عندنا أنواعاً من النثر، ثلاثة هي :

١- المحادثة

٢- النثر الفنى

٣- النثر العلمي

(١) المحادثة : -

قد جرى الباحثون على إخراج المحادثة من باب الأدب لأنها كلام عابر مكرر لا يستأهل التسجيل والدرس، ولقدانه جمال العبارة وصحتها أحياناً ثم قيمة المعنى، ولكننا بزيارة العصر الإسلامي المبسوط بالعصر الجاهلي يجب أن نقف

قليلًا للالحظ أن هذه المحادثة، فيما يظهر، كانت صحية العبارة حالية من الخطأ واللحن، إذ هي الم Osborne اللغوية الأولى التي كانت مقياس التمر، وعنها وضعت قواعد النحو، ونحن لا نعارض لها من الناحية اللفظية الصحيحة، ولكننا نسأل بعد ذلك: ألم تكن هذه اللغة حواراً أحياناً، وحكمه وأمثاله وعبارات متبربة في معانيها فوق صحة لفاظها أحياناً؟

وإنما يمنع أن يكون هذا الحوار أو الحديث أدباً؟

الحق أنه لا فرق بين هنا الحوار الذي كان وبين الحوار الذي تهياه الأن في لغة صحية، ويدور حول مسائل اجتماعية أو وصفية أو غير ذلك، وغاية ما نزيد إثباته أن المحادثة الإسلامية (وقبليها المحادثة الجاهلية) كانت أقرب إلى اللغة الأرية من محادثتنا الأن فقد كان للعرب مجالس سهر، وقصص، وحوار، ومشاورات تعقد في الليل وسط الحى أو بين الأحياء يتناول فيها القوم شئون الحياة، وأخبار الماضي والحاضر يغنوون بها أبناءهم، ويرفهون بها أنفسهم، وكثيراً ما يشترك فيها النساء، وكانت أشبة شيء بالجالس أو المنتديات الأدبية ولو قد حققوا لنا التاريخ صوراً منها إفادتنا كثيراً في تصوير الحياة الاجتماعية لهذا الشعب العتيق.

على أن محادثات الرسول (ﷺ) وأصحابه (وقد بقي منها شيء كثير) تعرض علينا صورة لهذه المحادثة،

١- في قريش ،

٢- وفي آخر العصر الجاهلي ،

وهي صورة تقريبية على أية حال فقد ظهر الإسلام والرسول (ﷺ) يتحدث لغة قرشية فصيحه، وهي لغته قبل القرآن وهي كذلك لغة الحديث الجاهلي

في بياعتها النحوية، بقيت كذلك من ناحية الصياغة العامة لم تتغير، فكانت أحاديث الرسول (ﷺ) صورة لغة التخاطب الجاهلية ولا يطعن في ذلك ما قد يكون في رواية الأحاديث من تغيير لأن التغيير لم يعم الأحاديث من جهة ولم يتناول عبارات كل حديث من جهة أخرى على أن هناك عبارات تروى على أنها من ابتكار الرسول (ﷺ) رويت بنصها مع جملة صالحة من الأحاديث الصحيحة، تصور لغة للحديث لا تختلف عن لغة القرآن الكريم في الصياغة النحوية.

وكذلك القول في لغات "أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى وسفيان ابن أمية" و غيرهم من آل الرسول (ﷺ) وقريش من كانوا يتناقشونه حول الإسلام.

ويحسن أن نلاحظ أنه في صدر الإسلام لم يكن هناك فرق في هذه الصياغة بين الحديث والخطابة والكتابة فهي كلها لغة طبيعية لا صنعة فيها ولا فن.

معنى ذلك أن لغة التخاطب في صدر الإسلام هي لغة التخاطب في الجاهلية وإن تغيرت معانيها وموضوعاتها، تستطيع إذا أن تقرب إلى الذهان لغة التخاطب والكتابة والقصص كما قلنا، وكم يلي التفصيل، فهي قوية الاداء سليمة البناء، صحيحة الإعراب حتى على السنة المعاوی الطویل المكت بینهم أما حديثوا العهد في الإقامة منهم فقد كانوا يرتضحون لكنه من لغتهم الأولى لحبشية بلل، وفارسية سلمان، ورومية صهيب.

وعلى الجملة فكانت المحادثة العادية خالية من اللحن وإن بدا من بعضهم بعض اللحن فقد كان ينظر إليه نظرة استهجان له واستعظام لما صدر منه فقد روى أن رجلاً لحن بحضوره النبي (ﷺ) فقال: "أرشدوا أحاكم فقد ضل". ولذلك قبل:

إن العربي الفصيح لا يخطئ لأن الإعراب جزء من لهجته لا ينفص عنها فهى هذه الفترة سليمة من الخطأ إلا إذا اختلطت الأمة السليمة فتسمى حينئذ لغة عامة أو شعبية لا تعد في نظر النقاد أدباً لمسيسين :
الأول ، معنوى وهو تفاهة المعاني أو تكرارها وعدم تباينها وعدم امتيازها فلا تستحق العناية والتسجيل .

الثاني : لفظي وهو تعرضها للأخطاء وتجاوز أصول النحو والبيان وليس لدينا نصوص حاسمة لهذه اللغة العامة إنما لم تدون ولم يُحكيها الرواة بالدقة في عصر التدوين بعد ذلك فذهبت صورتها الدقيقة في جنبات الصحراء .

(٤) النثر الفني

قبل أن نقدم إلى إيضاح النثر الفني في هذه الفترة ينبغي أن نشير في إيجاز شديد إلى نشأة الحياة الفنية عامه والفرق بينهما وبين الحياة العلمية في ذلك، وأول ذلك أن الحياة الفنية أسبق إلى الوجود من الحياة العلمية إذ كانت الأولى تجارب ابتدائية وأخذنا عن الطبيعة والحياة بشكل يشبه الاستقرار والتقليد ولكن الثانية تدوين لثمار هذه التجارب وإخضاعها لقوانين عامة تجمع شتاتها ، وتمييز بين أنواعها وتردها إلى عللها العامة ومصادرها الأولى، فقد عرف الإنسان الكوخ والدار قبل معرفته العمارة وهندستها، ووجدت الجريرة قبل تعريفها الجغرافي . ونظم الشعراء قبل تدوين العروض، وأعجب الناس بألوان الطيف قبل تفسيره . وهكذا نجد الفن يسبق ثم يكون أساساً لتكوين العلوم لذلك ترى أن الحياة الفنية يمكن أن تزدهر في عصر البداوة ما دامت تعتقد في الغالب على الشعور في أكبر الشعر والخطابة إلى الوجود بعد تكوين الجمادات ولكن الحياة العلمية لا

توجد إلا في البيئات المستقرة والمدن القائمة لتبسيط العقل المهدوء والتفكير والموازنة والاستنباط والتجارب من التدوين، ومن هنا نرى التاريخ الإسلامي العام أن النثر العلمي تأخر في الوجود وكذلك النثر الفني الذي يعتمد على التجود والصنعة وحسن التفكير ودقة التعليل: (الكتابة الانشائية).

فالحياة الفنية سابقة على الحياة العلمية وكذلك الفنون كلها كالرسم والغناء والرقص والتمثيل توجد في عصور سابقة قبل أن تتحضر الشعوب وتستقر لإقامة الحياة العلمية المنظمة وسواء أكانت غاية الفنون الجميلة هي التعبير أم السرور أم الفائدة فإنها متشابهة الغايات وإن اختلفت في وسائل الأداء فهى في الشعر أو الأدب كلام أو لغة كلامية وهي في الرسم أو لوان أو لغة لونية وهي في التصوير أحجار وفي الغناء أنغام وفي الرقص أجسام، وهكذا كانت لغة الفن مختلفة وغایتها واحدة ومنها اللغة الأدبية التي كانت وسيلة الحياة الأدبية.

والنثر الفني الأدبي يتناول الخطبة والرسالة والقصة والحكمة والمثل ونحوها مما هو نصوص أدبية يراعى منها ناحية التأثير وإثارة العواطف ولستنا نشك في أن شيئاً من ذلك قد وجد ولا سيما الخطابة والكتابة والمعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية، لأن الحياة الاجتماعية في ذلك العهد كانت تستند على الخصومات والدعوة الدينية فكان لابد من السنة تصور هذه الحوادث.

(١) الخطابة:-

ولقد كانت الخطابة في الجاهلية أداة اجتماعية هامة للحرب والصلح والوفادة والزواج والمحاورة والمنافرة والوعظ، وجاء الإسلام فازدادت نشاطاً وأخذت تستميل كذلك في موضوعاتها ومعاناتها وألفاظها، نشطت استجابةً لهذه

الدعوة الجديدة وتغيرت فصارت دعوة دينية وسياسية وحزبية وإجتماعية ظهرت
القرآن فيها سريعاً ،

١- لقربها من فنه .

٢- ولاعتمادها عليه مباشرة .

٣- ولقتبسها من آية .

٤- ولأنها في سريع شفوئ خصوصاً لدى العرب .

ومن تتبع نصوصها ، وأطلع على شواهدها ، وأمعن النظر في شانجها تبين
له مثانة أسلوبها ، وعنوية الفاظها ، وشرف معانيها ، وقوة تأثيرها ، واقتبسها من
القرآن وانتهاجها تتجه في الارشاد والاقناع ثم زادها عظمةً ورقياً إلى أن جاء
القرآن تثراً لا شعراً وإن بلغ بنته من التأثير في النفوس والوصول إلى مواطن
الحجـة والاقناع ما لم يبلغه الشعر من قبل وإن جاء رسول الله (ﷺ) غير شاعر
يتصرف بخطابته تصرفاً تناول حتى الأمور من دعوة إلى الدين وبين أحكامه ،
ورسم سياسة الدولة الدينية والاجتماعية والتشريعية، ومن تحمس الجنـد وحـثـهم
على القـتـال والـدـفـاع، وقـعـقـعـ الفـنـ وـرـدـ الـبـدـعـ وـالـحـضـ على لـزـومـ الطـاعـةـ وـغـيرـ ذـلـكـ منـ
جـلـائـلـ الـأـمـورـ الـتـيـ يـقـصـدـ قـصـدـهاـ، وـيـتـجـهـ نحوـهاـ فـيـ فـصـاحـةـ لـسـانـ وـجـسـنـ بـيـانـ
وـنـصـاعـةـ حـجـةـ وـدـرـايـةـ مـنـطـقـ، وـقـوـهـ الـهـامـ، وـقـدـرـةـ عـلـىـ الجـدـلـ وـتـمـكـنـ مـنـ وـسـائـلـ
الـإـقـنـاعـ، وـمـعـرـفـةـ وـطـبـيـدـةـ بـلـغـاتـ الـعـرـبـ، وـلـهـجـاتـهـ عـلـىـ تـنـائـيـ الـدـيـارـ، وـاـخـتـلـافـ
الـتـهـجـاتـ ثـمـ جـاءـ خـلـفـاؤـهـ مـنـ بـعـدـ فـاسـقـتـوـاـ سـنـتـهـ، وـاـنـتـهـجـوـاـ طـرـيقـتـهـ وـسـارـوـاـ عـلـىـ
هـدـيـهـ يـعـنـىـ إـلـىـ الـدـيـنـ، وـيـشـرـحـونـ تـعـالـيمـ إـلـاسـلـامـ وـيـنـفـذـونـ الـعـهـودـ وـالـوـصـاـيـةـ لـلـقـوـادـ
وـالـوـلـاـةـ وـالـقـضـاءـ بـمـثـلـ مـاـ كـانـ يـفـعـلـ رـسـوـلـ اللـهـ (ﷺ)ـ، وـلـكـنـهـ تـقـحـمـوـاـ أـبـوـابـ جـدـيدـةـ

كانت موصدة أيام رسول الله (ﷺ) فقد حدث خلاف بين المهاجرين والأنصار كاد يتسع خطره لولا حكمة "أبي بكر وعمر" كما أردت كثير من قبائل العرب أول خلافة "أبي بكر" حيث اتفق بباب الفتنة الكبرى على مصراعيه فدخلت الأمة منه إلى فرقة لا جمع لها، وإلى خلاف لم يأت بعده اتفاق، والتاريخ أصدق سجل وخير محدث عن ذبح "عثمان" ﷺ وما كان بين العلوين والأمويين وبين هؤلاء جميعاً والخوارج الناقمين مما أدى إلى حروب الجمل وصفين وأنهى عهد الخلفاء الراشدين بقتل "علي" - رحمة الله - سنة أربعين، وسيأتي تفصيل الخلافات أيام الأمويين.

فالخطابة في صدر الإسلام كان عليها أن تتناول هذه الأحداث والفتن التي أتسع أفقها، وعم شأنها وشغل الناس بها، ولو لها كل ذي مكانة مؤيداً أو معارضاً - موالياً أو معادياً - مكثراً القول في قلب الولاية والحكم، وتنتقص الخلفاء وإظهار معايبهم، كذلك حدث في فتنة "عثمان" ﷺ أو يجادل خصمه، ويوهن حجته، ويأخذ عليه نواحي الرأي ومسالك الكلام كما حدث بين علي - كرم الله وجهه - والخوارج فظهرت قوة الحوار وشدة الجدل، وتصوّر الحجة ولده الخصومة، لذلك وجدت الخطابة لها في هذا العصر وقوداً هائلاً أشعل جذوتها، وانكى نارها، ومدّاً في الأرض فأكسيها الرقى والنمو والازدهار، وبقيت الخطابة عاداتها القديمة من اعتجاج العمامة، والاشتمال بالرداء، واتخاذ المخررة والوقوف على نشر من الأرض أو منبر وكان رسول الله (ﷺ) يعتمد على قوس في الحروب، وعلى عصا في السلم قبل أن يتخذ له المنبر، وكانوا يبدونها بالحمد لله وتحقيقه، والثناء عليه وتعظيمه، ثم الصلاة على خاتم الأنبياء وصفاته من خلقه ولذلك لما خلت خطبة "زياد" من هذا البدء سميت بالبتاء.

وقد جروا فيها على طرق الإيجاز والإطناب اتباعاً للداعي فقد خطب رسول الله (ﷺ) من لدن صلاة العصر حتى دنت الشمس للمغيب ، كما في رواية "أبي سعيد الخدري" .

كما ذكر أن "عمر" لما بُويع وقف على المنبر فلم يزد على قوله بعد "الحمد لله، والصلوة على نبئه ، ثم قال : "أيها الناس ، انه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى أخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوى حتى أخذ الحق منه " ثم نزل .

هذا بخطباء صدر الإسلام بعد رسول الله (ﷺ) لا يحصون كثرة وأعظم الخلفاء الراشدين، كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين غير أنه من المجمع عليه أن خطب خطبائه غير مدافع ولا منازع بعد رسول الله (ﷺ) هو ابن عمه وزوج ابنته "علي بن أبي طالب" - رحمه الله تعالى - .

نماذج من الخطابة في هذا العصر

هذا نزل قوله تعالى : « فَاصْدِعْ بِمَا تُنْهِرْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » (الجسر : ٩٤)

دعا رسول الله (ﷺ) قومه ، وصعد النبي - عليه السلام - على الصفا ، فجعل ينادي : ((يا بني فهر ! يا بني عدي !)) ليطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، ف جاء أبو لهب وقريش فقال : ((أإيتمكم لوأخبرتكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم أكتنم مصدقي ؟)) قالوا : نعم ، ما جربنا عليك (لا صدقأ .

قال : ((فلئن تذير لكم بين يدي عذاب شديد)) .

فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَتَبَرَّ عَشِيرَةَ الْأَقْرَبِينَ » (٢١٤) [الشعراء: ٢١٤] .
جَمِيعِهِمْ (﴿) فَحَمَدَ اللَّهُ ثُمَّ أَنْتَسَى عَلَيْهِ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدٌ
وَاسْتَعِينُهُ وَأَؤْمِنُ بِهِ وَأَتُوكُلُّ عَلَيْهِ، وَأَشْهُدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » .
لَمْ قَالَ ، « إِنَّ الرَّاِئِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهُ لَوْكَذَبَ النَّاسَ جَمِيعًا ، مَا كَذَبْتُكُمْ
وَلَوْغَرَتِ النَّاسُ ، مَا غَرَبْتُكُمْ وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً
وَإِلَى النَّاسِ كَافِةً، وَاللَّهُ، لَمْ يَوْمَنْ كَمَا قَنَامُونَ، وَلَتَبْعَثَنَّ كَمَا تُسْتِيقَطُونَ، وَلَتَحْسِنَنَّ
بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتَجْزِيَنَّ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا لِلْجَنَّةِ أَبْدًا، وَالنَّارُ
أَبْدًا، وَأَنْتُمْ لِأَوْلِ مِنْ أَنْذَرْ » .

وخطب رسول الله (ﷺ) حين دخل مكة فبعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته وأخذ مفتاح الكعبة من حاجتها "عثمان بن ملحة" وقف على باب الكعبة وجمع أهل مكة وخطب فيهم فقال:

((لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب
وحده، ألا كل مائة أو دم أو مال يدعى فهو نحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت
وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط أو العصا ففيه الديمة مغلظة
مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها، يا معاشر قريش إن الله قد أذهب
عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء، الناس من آدم وأدم من تراب، ثم تلا قوله
تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا حَنَتْكُلُّ مِنْ ذَكْرِي وَأَنْتُ
وَجَعَلْتُكُلُّ شَعُورًا وَكَسَلَ لِيَقَارِبًا إِنَّ أَكْثَرَكُلُّ
عِنْدَ اللَّهِ أَفْتَنَكُلُّ إِنَّ اللَّهَ عَلَمُ خَيْرٍ﴾ [الحجرات: ١٣])

ثم قال ((يا معاشر قريش ما ترون أني فاعل بكم اليوم؟)) قالوا: خيراً، أخ
كريم ابن أخي كريم، قال: ((اذهروا فأنتم الطلاقاء...)).

وخطب يوماً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس إن لكم معامل
فاتتها إلى معالكم وإن لكم نهاية فاتتها إلى نهايتكم فإن العبد بين مخافتين
أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه
فليأخذ العبد من نفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة
قبل الممات فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعبد ولا بعد الدنيا من
دار إلا الجنة أو النار".

وخطب "أبو بكر الصديق" عليه يوم السقيفة، فحمد الله وأثنى عليه،
ثم قال، أيها الناس! نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً
وأوسطهم داراً، وأحسنهم جوهاً، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمستهم رحمة
رسول الله (أنسلمنا قبلكم، وقدمنا القرآن عليكم، فقل تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ
أَلْوَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَسَارِ وَالَّذِينَ أَتَجْعَلُهُمْ يَلْتَهِنَ﴾] (التوبة: ١٠٠)

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء
وأنصارنا على العدو، أويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء، وأنتم
الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنسوا على إخوانكم المهاجرين
ما منحهم الله من فضله.

أما بعد أيها الناس، إنني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحبيبتم وكربلتم، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خيرٌ مَن يُكذب يُفجر، ومن يُفجر بهلك، وإياكم والفالح، وما فَحَرْ مَنْ خَلَقَ مِنْ تَرَابٍ وَإِلَى التَّرَابِ يَعُودُ، هُوَ الْيَوْمَ حَيٌّ غَدَى مَيْتًا، فاعملوا وعْدُوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوه علمه إلى الله، وقدموا لأنفسكم خيراً تجدوه مُخضراً، فإنه قال عَلَّا وَجَلَّ: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ مِنْ تَحْرِيرٍ مُّخْسِرًا وَمَا عَيَّشَتْ مِنْ شُوَّرٍ تُؤْتَى بِهَا وَبَيْتَهَا، أَمَّا بَيْدَهَا وَبِحَدْرِ حُكْمِ اللَّهِ تَفَسَّرَهُ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْمُبَكَّرِ» [آل عمران: ٣٠]

فائقو الله عباد الله، وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صنغيرها وكثيرها، إلا ما غفر الله أنه غفور رحيم فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله، ولا خ Howell ولا قوَّةٌ إلَّا بالله، إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصْلَوْنَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلَوَاتُهُ وَسَلَامُهُ تَسْلِيمًا، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَأَلْحِقْنَا بِهِ، واحشرنا في زُمْرَتِهِ، وَأُورِثْنَا حَوْضَهُ، اللَّهُمَّ اعْنَا عَلَى مَلَائِكَتِكَ وَانْصُرْنَا عَلَى عَدُوكَ.

ومن أبلغ كلامه حين عهد بالخلافة إلى "عمر" رض ما روي عن عبد الرحمن بن عوف انه قال: دخلت على أبي بكر الصديق رحمة الله عليه في علته التي مات فيها يوما، فقلت: أراك بارثا يا خليفة رسول الله. فقال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معاشر المهاجرين أشد علي من وجيبي، إني وأبى أموركم خيركم في نفسي، فكلكم ورغم أنفه أن يكون له الأمر من دونه، والله لتخذن نصائح الديباج، وستور الحرمين ولتألم النوم على الصوف الأذري كما يالم أحدكم النوم على حستك السعدان، والذي نفسى بيده لن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمارات الدنيا، يا هادى الطريق، جربت، إنما هو الفجر أو البحر.

فقلت: خفّض عليك يا خليفة رسول الله، فإن هذا يهيبك إلى ما يملك، فوالله ما زلت صالحًا مصلحة لا تأسى على شيء، فاترك من الدنيا، وقد تخليت بالأمر وحدك فما رأيت إلا خيراً.

ومن خطب "عثمان" رض . وقد نقم الناس عليه :

قال: * أما بعد فإن لكل شئ آفة وإن لكل نعمة عاهة وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة هيابون ظنانيون يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون يقولون لكم وتقولون طغام مثل النعام يتبعون أول ناعق أحب مواردهم إليهم النازح لا يشربون إلا نعاصرا ولا يردون إلا عسيراً لا يقوم لهم رائد وقد أغبتم الأمور وتعذرتم عليهم المكاسب .

لقد أقررت لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم على ولكنكم برجله وضرركم بيده ووكمكم وقمعكم وزجركم زجر النعام المخزومة فدنتم له على ما أحبابتم

أو كرهتم ولنت لكم وأوطأت لكم كنفي وكففت يدي ولسانني عنكم فاجترأتم على
أنا والله إني لأقرب ناصراً وأعزر نفراً وأكثر عدداً وأقمن إن قلت هلم أن تجاذب .
دعوني من عمر ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولاً وكشرت لكم عن
نابي وأخرجتم مني خلماً لأنك أحسنه ومنطقاً لم أنطق به فكفوا عليكم ألسنتكم
وعطونكم وعيوبكم على ولاكم فإني قد كففت عنكم من لوكان هو الذي يكلمكم
لرضيتم منه بدون منطقى هنا، إلا فما تقدون من حكمكم فوالله ما قصرت في بلوغ
ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا مختلفون عليه فضل ، فضل من مالي
فمالى لا أصنع في الفضل ما أريد إذن فلم كنت إماماً .

ومن خطبه في الوعظ :

إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطليوا بها الآخرة، ولسم بعطاكموها لتركها
إليها، إن الدنيا تقى وإن الآخرة تبقى، ولا ينطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن
الباقيه.. ولحدروا من الله الغير، والازموا جماعكم، ولا تصيروا أحزاباً ، ثم قرأ
قوله تعالى:

﴿ وَأَنْتُمْ سَايِّدُ الْأَرْضِ مِمَّا لَا يَرَوُونَ وَإِذَا كُرِّبُوكُمْ بِمَسْأَلَةٍ إِذَا كُرِّبْتُمْ أَعْدَمُهُمْ فَاللَّهُ
يَعْلَمُ فَلَا يُؤْمِنُ بِمَا يَتَكَبَّرُونَ وَكُلُّمُّ عَلَى شَيْءٍ أَنْتُرُهُ مِنْ أَكْثَرِ
رِبَّيْرِكُمْ فَأَتَبْيَثُمْ بِمَا تَحْشِيدُونَ وَكُلُّمُّ عَلَى شَيْءٍ أَنْتُرُهُ مِنْ أَكْثَرِ
رِبَّيْرِكُمْ كُلُّمُّ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ٣٦] .

وخطب "على بن أبي طالب" لما أريد على البيعة بعد قتل "عثمان" - رحمه
الله - فقال : "دعوني والتمسوا غيري، فإنما مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم
له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت،
واعلموا أني إن أحببكم رغبت لكم ما أعلم، ولم أصل إلى قول القائل وعتب العاتب،

وإن تركتموني فأننا كأحدكم ولعلني أسمعكم وأطوعكم لمن وليتهمه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً.

ومن خطبه كرم الله وجهه حين استنفر أهل الكوفة لجرب الجمل قال :

"فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآتَاهُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِ، وَالنَّاسُ فِي اخْتِلَافٍ وَالْعَرَبُ بَشَّارٌ الْمَنَازِلُ، مُسْتَضْعِفُونَ لِمَا بَيْمُ، فَرَأَبَ اللَّهُ بِالثَّانِي، وَلَامَ بِالصَّدْعِ، وَرَتَقَ بِالْفَتْقِ، وَأَمْنَ بِالسَّبِيلِ، وَحَقَّنَ بِالدَّمَاءِ، وَقَطَّعَ بِالْعَدَاوَةِ الْمُوْغَرَةَ لِلْقُلُوبِ، وَالضَّغَائِنَ الْمَشَحَّةَ لِلصُّدُورِ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُشَكُوراً سَعِيهِ مَرْضِيَاً عَمَلَهُ، مَغْفُوراً ذَنْبَهُ، كَرِيمًا عَنِ الدَّلَّةِ تَرَكَهُ. فِيمَا لَهَا مِنْ مَصِيبَةٍ عَمِتَ الْمُسْلِمِينَ وَخَصَّتِ الْأَقْرَبِينَ، وَوَلِيَ أَبُو بَكْرٍ فَسَارَ فِينَا بِسِيرَةِ رَضَا، رَضِيَّ بِهَا الْمُسْلِمُونَ.

ثُمَّ وَلِيَ عَمَرٌ فَسَارَ بِسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ثُمَّ وَلِيَ عُثْمَانَ فَنَالَ مِنْكُمْ وَنَلَمْ مِنْهُ.

ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، أَتَيْتُمُونِي فَقُتِلْتُ : لَوْ بَايَعْتُنَا ؟ فَقُلْتُ : لَا أَفْعُلُ ، وَقِبَضَتْ يَدِي فِيْسَطِيلَمُونِيَا ، وَنَازَعْتُكُمْ كَفِيْ فِجَذِبِتُمُونِها وَقُلْتُ : لَا نَرْضِي إِلَّا بَكُ ، وَلَا نَجْتَمِعُ إِلَّا عَلَيْكُ ، وَتَرَاكْتُمْ عَلَى تَرَاكِمِ الْأَيْلِ الْهَبِيمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرُودِهَا ، حَتَّى ظَلَّتْ أَنْكُمْ قَاتِلِيَ وَأَنْ بَعْضَكُمْ قَاتِلُ بَعْضًا ، فَبَايَعْتُنِي ، وَبَايَعْنِي طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرِ ، ثُمَّ مَا لَبَثْتُ أَنْ أَسْتَأْنَثَنَيَ إِلَى الْعُمْرَةِ .

فَسَارَ إِلَى الْبَصَرَةِ فَقَاتَلَهَا الْمُسْلِمِينَ ، وَفَعَلَهَا الْأَفْاعِيلُ ، وَهُمَا يَعْلَمَانِ وَاللَّهُ أَنِّي لَسْتُ بِدُونِ مَضِيٍّ ، وَلَوْ أَشَاءَ أَنْ أَقُولَ لِقُلْتُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَّعَا قَرَابَتِيِّ ، وَنَكَنَا بِيَعْنِي ، وَأَلْبَا عَلَى عَدُوِّيِّ . اللَّهُمَّ فَلَا تَحْكُمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا . وَأَرْهَمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا عَمَلا وَأَمَلَا .

الكتابة

إن من أقوى وسائل الحضارة والتمدن ، والرقي والتقدم في جميع المجالات وأساس حاجيات الملوك والسلاميين والأمراء هي " الكتابة ". فكلما تعددت مناحي الحضارة ، واتسعت مناهج الفكر كانت الحاجة ماسة وملحة إلى " فن الكتابة " ويعنى بالكتابة هنا هي التي لا تقتصر عن أسلوب المشافهة ، لأنها امتداد للحديث العادي ، وليس فنًا ملكرة خاصة . أما الكتابة التي يتائق فيها كاتبها ، ويحاول تحسينها ، وصياغتها بالصيغة الفنية ذات الصناعة اللفظية يكون خاضعاً في الغالب لأصول وتقالييد مرسومة ، هذا اللون من الكتابة لا يوجد إلا على يد الكتب في القرنين (الأول والثاني) مثل " عبد الحميد الكاتب ، وابن المفع ".

ولم يسمع العهد الجاهلي بالكتابة ، حيث كان عصر سذاجة وبداءة يجد أنه لما جاء الإسلام وحيث على العلم والتعليم وكان أول آيات القرآن نزولاً " أقرأ باسم ربك الذي خلق " فهيا الإسلام المسلمين للثقافة والتهدیب ، والفتح والجهاد والولاية على الأرض وذلك لنشر الإسلام بين الشعوب والأمم .

هذا الأمر جعل الكتابة أساساً لتلك النهضة العظيمة التي أتاحتها الله للMuslimين ، وذلك ما وضع رسول الله ﷺ دعامتها الأولى منذ بعثة سيدنا محمد ﷺ . فقد أدرج ابن عمه سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - منذ طفولته على تعلم القراءة والكتابة ، وكذلك أخذ أخاه جعفر بن أبي طالب وكانت تلك خطة في أسرته وعشائرته وقد أمن سيدنا محمد ﷺ على كل من يحسن القراءة والكتابة من أصحابه فجعلهم كتاب وحبيه ، وهذا هو أسمى ما يطمح إليه إنسان يؤمن بالله ورسوله .

وقد راسل محمد (ﷺ) الملوك والأمراء يخبرهم برسالته ، ويدعوهم إلى اعتناق دينه والإيمان بالله - عزوجل - وحده لا شريك له ، واستخدم في تدوين هذه الرسائل عليه السلام - كثرة كاثرة من كتابه الذين تعلموا القراءة والكتابة كما كتبوا له عهود الصلح التي عقدت بينه وبين قريش وغيرهم كثير من سخل الإسلام .

وقد عمل رسول الله (ﷺ) على تعليم الكتابة ، ففرض على أئمته غزوة بدر الكبرى ، والذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة أن يفدى نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، فكان ذلك فتحاً مبيناً للعلم ، ولم يلحق النبي (ﷺ) بالرفيق الأعلى حتى أتاف الكتاب على " خمسمائة " من الذين يجيدون القراءة والكتابة بين فتى وفتاة ورجل وامرأة وكان كتابه (ﷺ) على نوعين :

النوع الأول : كتاب وحي لرسول الله (ﷺ) .

النوع الثاني : كتاب أعمال .

ومن كتاب الأعمال كما يرويه لنا " القضايع " في كتابه " عيون المعرف " " الرزير بن العوام ، وجهم بن الصلت " وحذيفة بن اليمان " وكانوا يكتبون الصدقات والمغيرة بن شعبة والحسين بن ثمير " وكانوا يكتبهن التدابير والمعاملات . وقد سار خلفاء النبي (ﷺ) في نشر الكتابة واستخدام الكتاب في رسائلهم إلى القادة والعمال ، وفي وصاياتهم إلى قضائهم ، وكذلك في مصالحتهم في أهل البلاد المفتوحة وعامة المسلمين .

وقد بقيت الكتابة من عمل النبي (ﷺ) وأصحابه من بعده ينشئون بملكتهم فيكتبون بأيديهم أو يمليون غيرهم إن لم يكونوا كاتبين .

ولهذا لم توجد طائفة خاصة تدعى " طائفة الكتابة " كما صارت إلى الحال فيما بعد .

ميزات الكتابة

ومن ميزات الكتابة في هذا العصر، وهي طابعها السهل، وبعدها عن التكليف مع ميلها إلى الإيجاز، وقصدتها إلى الغرض المطلوب وخلوها من عبارات التفخيم، فما عرقوه ضمير الجمع إلا له فيقولون "أنا وأنت" واحتذاؤها حذوا القرآن الكريم وذلك في الجزالة والقوة وامتداد الجمل، ورسوخها في الفصاحة ولم يكن يميزها عن أسلوب المشافهة إلا ابتداؤها بقولهم:

"من عبد الله" فلان "أمير المؤمنين إلى" فلان بن فلان "أما بعد فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله ، الذي لا إله إلا هو أو هذا ما عاهد به أمير المؤمنين ، أو هذا ما أوصى به أمير المؤمنين ، أو هذا ما صالح به أمير المؤمنين ، كما كان الوالي أو القائد إذا كتب إلى الخليفة قدم اسم الخليفة فيقول مثلاً .

"من سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر، وقد يقول: إلى أمير المؤمنين من فلان".

وكانت الكتابة ترمي إلى الغرض دون إملاء أو تكليف بعيدة عن فضول الكلام حتى لقد كان الكتاب في بعض الأحيان يكتبهن سطراً واحداً كما كتب "عمربن الخطاب" - رضي الله عنه - إلى "عمرو بن العاص":

"من أمير المؤمنين عمربن الخطاب إلى عمربن العاص" أما بعد "فما تبالي يا عمرو إذا شبعتك أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معن فوا غوثاه ثم واغوثاه":

فأجابه عمرو: "إلى أمير المؤمنين عمربن الخطاب من عمربن العاص".

سلام عليك (أما بعد) فقد أرسلت إليك بغيراً أولها عندي وأخرها عندي
والسلام .

وريما وقف الكتاب عند جملة واحدة ، كما كتب " خالد بن الوليد " إلى
" عياض بن غنم " حين استنجد به وهو محاصر بدومة الجندي : " إياك أريد " ولعل
هذا أوجز كتاب في الأدب العربي .

هذا ما يتعلق بالكتاب في عهد رسول الله (ﷺ) وخلفائه الراشدين ، ومنه
يعلم أن الكتابة كانت كتابة رسائل فحسب ، ومع ذلك لم تصطبغ بصبغة ذات
صناعة لأن العهد كان قريباً من البداوة .

أما كتابة الدواوين فكانت تؤدي بلغة أهل مصر ، وهي القادسية في
فارس ، والعراق ، والرومية بالشام ، والقبطية في مصر إلى أن كان تعريب
الدواوين على عهد " عبد الملك بن مروان " ، كما سيجيئ تفصيل ذلك .

نماذج من كتابة هذا العصر

١- كتب رسول الله (ﷺ) إلى ملك الفرس (كسري أبرويز) :

"بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى "كسري عظيم"
فارس "سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله وأدعوك بدعابة الله -
عزوجل - فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على
الكافرين . أسلم تسلم فإن توليت فإن إثم المجروس عليك " .

٢- وكتب إلى ملك الروم :

"بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى "هرقل" عظيم الروم
"سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فإني أدعوك بدعابة الإسلام - أسلم تسلم
يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنا عليك إثم الأرسيين^(١) وبأهل الكتاب
تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخد
بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون " .

٣- وكتب إلى "المقوس" عظيم القبط بـ "مصر" :

"بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله (ﷺ) إلى "المقوس" عظيم
القطط . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فإني أدعوك بدعابة الإسلام فاسلم
 وسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم القبط وبأهل الكتاب تعالوا
إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخد بعضاً
بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون " .

١ - قيل : هم الخدم والخول لصبرة لياعم عن الدين ، وقيل : هم صبة النار فجعل عليه إيمهم .

٤- وكتب إلى "النجاشي" ملك الحبشة :

"بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله (ﷺ) إلى النجاشي"
ملك الحبشة - إني أحمد إليك (الله الملك القدس) السلام ، المؤمن المهيمن
وأشهد أن عيسى ابن مريم البنتول (الطيبة الحصينة) حملته من روحه ونفخه
كما خلق آدم "ببيده وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعني وتومن
بالذى جاءنى فإنى رسول الله (ﷺ) وإنى أدعوك وجنودك إلى الله - عزوجل -
وقد بلغت ونصحت فاقنلوا نصحتى ، وقد بعثت إليكم ابن عمى "جعفرًا" ومعه
نفر من المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى".

٥- ولما ادعى "مسيلمة" النبي، وكتب إلى النبي محمد (ﷺ)
من مسيلمة رسول الله سلام عليك (اما بعد) فإني قد أشركت في الأمر معك وإن
لنا نصف الأرض ولقربيش نصفها - ولكن قريشاً قوم يعتدون .
كتب إليه (ﷺ) ،

"بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله (ﷺ) إلى مسيلمة
الكتاب" - السلام على من اتبع الهدى (اما بعد) فإن الأرض لله يورثها من يشاء
من عباده والعاقبة للمتقين ."

٦- وعهد "أبو بكر الصديق" - إلى "عمر" بالخلافة عند
موته فقال : "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به "أبو بكر" خليفة محمد
رسوله (ﷺ) عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالأخرة في الحال التي يؤمن فيها

١- أى أحمد الله معك أو لحمد الله حمدًا أشهدك عليه أو لوجهه إليك في مقابلتك .

٢- تقسم الله : تؤذنه وهو القدس .

٣- المعايدة العلاظمة للعبادة .

الكافر، ويتقى الفاجر، إنني استعملت عليكم "عمر بن الخطاب" فإن بِرْ وعد
فذلك علمي به ، ورأي فيه ، وإن جازَ ويدلُّ فلَا علم لِي بالغَيْبِ والخَيْرِ أَرِدْتُ ، ولكل
أَمْرٍ مَا اكتَسَبَ وَسِعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلْبٍ يَتَقْلِبُونَ ."

ـ ٧- ومن وصاياتهم إلى أولياء عهودهم وصبية "أبي بكر الصديق"

ـ لـ "عمر" رضى الله عنهما :-

"إنِي مُسْتَخْلِفُكُمْ بَعْدِي وَمُوصِيكُمْ بِتَقْوَىِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَمَلًا بِاللَّيْلِ لَا يَقْبِلُهُ
بِالنَّهَارِ ، وَعَمَلًا بِالنَّهَارِ لَا يَقْبِلُهُ بِاللَّيْلِ ، وَإِنَّهُ لَا تَقْبِلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤْدِيَ الْفَرِيضَةُ
فَإِنَّمَا تَقْلِبُ مَوَازِينَ مِنْ تَقْلِبِ مَوَازِينِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِاتِّبَاعِهِمُ الْحَقَّ فِي الدُّنْيَا وَتَقْلِبُهُ
عَلَيْهِمْ ، وَحْقٌ لِمِيزَانٍ لَا يَوْضُعُ فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ أَنْ يَكُونَ خَفِيفًا إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَهْلَ الْجَنَّةِ
فَذَكَرَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ ، وَتَجَاهَوْزُونَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَإِنَّمَا ذَكَرَتْهُمْ قَلْتُ إِنِّي أَخَافُ
أَلَا أَكُونُ مِنْ هُؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ النَّارِ ، فَذَكَرَهُمْ بِأَسْوَأِ أَعْمَالِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرْ حَسَنَاتِهِمْ فَإِنَّمَا
ذَكَرَتْهُمْ قَلْتُ إِنِّي لَا أَرْجُو أَلَا أَكُونُ مِنْ هُؤُلَاءِ ، وَذَكَرَ أَيْدِي الرَّحْمَةِ مَعَ أَيْدِيِ الْعَذَابِ
لِيَكُونَ الْعَبْدُ رَاغِبًا رَاهِبًا ، وَلَا يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا يَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهَلْكَةِ
فَإِنَّمَا حَفَظْتُ وَصِبَّتِي هَذِهِ فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَهُوَ أَنْتُكُمْ ، وَإِنْ
صَدَقْتُ وَصِبَّتِي فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَبْغَضُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَلَسْتُ بِمَعْجَزِ اللَّهِ ."

ـ ٨- ومن إرشادهم لقضائهم كتاب "عمر" إلى "أبي موسى

الأشعري" وقد وله القضاء :

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ 'عَبْدِ اللَّهِ عَمَرَ' أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى 'أَبِي
مُوسَىِ الْأَشْعَرِيِّ' سَلَامٌ عَلَيْكَ (أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّ الْقَضَاءَ فِرِيضَةٌ مُحَكَّمةٌ ، وَسَنَةٌ
مُتَبَعَّةٌ فَاقْهِمْ إِنَّا أَدْلَى إِلَيْكُمْ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكْلِمُ بِحَقٍّ لَا تَفَادُ لَهُ . أَسْ بَيْنَ النَّاسِ

في وجهك وعدلك ، ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يبأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيتك اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمازى في الباطل . الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فليس الأمور عند ذلك ، وأعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لن ادعى حقاً غالباً أو بينةً أمراً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينةً ولا استحاللت عليه القضية فإنه أتقى للشك ، وأجلى للعمى والمسلمون عذول بعضهم على بعض إلى مجنوداً في حد مجر أو مجرياً عليه شهادة زور أو ضغيناً ، في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والإيمان إياك والغلق ، والضجر والنوى بالخصوص ، والتذكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجرا ، ويحسن الرزخ ، فمن صفت بيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظلمك بثواب الله في عاجل رزقه ، وخزان رحمته والسلام " .

٩- ومن مصالحتهم لأهل البلاد المفتوحة ما كتبه " عمر " إلى أهل " إيليا " " بيت المقدس " :-

" بسم الله الرحمن الرحيم " : هذا ما أفعى ^١ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل " إيليا " من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائهم وصلبانهم وسقيمهها وبريهما وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من

حيزها ، ولا من صلبهم ، ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن "إيلياه" معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل "إيلياه" أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المذاهب ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماليه حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل "إيلياه" من الجزية ، ومن أحب من أهل "إيلياه" أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلص بيعهم ، وصلبانهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم .

١- ومن رسائلهم إلى أمراء الأمصار ما كتبه "عثمان" - رضي

الله عنه - إلى عماله حين ولى الخلافة :-

(أما بعد) فإن الله أمر الأنبياء أن يكونوا دعاة ولم يتقدم إليهم ألم يكونوا جيارة وإن صدّر هذه الأمة خلقوا جيارة - وليوشك أنتمكم أن يصيروا جيارة ولا يصيروا دارة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياة والأمانة والوفاء . لا وإن أعدل السيرة أن تنتظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوههم مالهم وتأخذوه بما عليهم ، ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهם الذي لهم وتأخذوه بالذي عليهم . ثم العدو تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوقاء .

١١- ومن مناشير إلى عامّة المسلمين ما كتبه "عثمان" :

* أما بعد فإننا بلغتم ما بلغتم بالاقتداء ، والاتباع فلا تلتفتكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صادر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلات فيكم : تكميل النعم ، وبلوغ أولاد المسبايا ، وقراءة الأعراقب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله (ﷺ) قال : الكفر في العجمة فإذا استجمعت عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا .

١١- وكتب "على" إلى "معاوية" بعد وقعة الجمل :-

"سلام عليك (أما بعد) : فإن بيعتى بالمدينة لزمالك وأنت بالشام لأنك بابعنى الذين بايعوا "أبا بكر، وعمر، وعثمان ، وعلى" ما بايعوا عليه فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك رضاً ، وإن خرج عن أمرهم خارج ردهه إلى ما خرج عنه ، فإن أبي قاتلوا على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساعات مصيراً ، وإن "طلحة والزبير" بايعانى ثم نقضوا بيعتهمما وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما بعدما أذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، فاندخل فيما دخل فيه المسلمين ، أحبت الأمور إلى قبولك العافية وقد أكثرت في قتلة "عثمان" فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمين ، ثم حاكمت القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله .

وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللَّـبِّ والْمُفْرِّي لئن نظرت بعقلك دون هواك لتتجذبني أبداً قريش من دم "عثمان" واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى وقد بعثت إليك من قبلك "جرير بن عبد الله" وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبایعه ، ولا قوة إلى بالله .

١٢- فكان جواب "معاوية" على هذه الرسالة :-

"من "معاوية بن صخر" إلى "على بن أبي طالب" (أما بعد) : فلعمري لو بابعك القوم الذين بابعوك وأنت بريء من دم "عثمان" كنت كأبي بكر وعمر وعثمان "رضي الله عنهم أجمعين ولكن أغرتني "عثمان" المهاجرين ، وخدنك عنه الأنصار فأطاعتني الجاهل ، وقوى بك الضعف ، وقد أبي أهل الشام إلا قتالك حتى

تدفع إليهم قتلة "عثمان" فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ولعمري
ما حجتك على "كحجتك على" "ملحة والزير" لأنهما يابعاك ، ولم أباعك ، وما
حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق لأن أهل العراق أطاعوك
ولم يطعنك أهل الشام ، وأما شرفك في الإسلام وقرباتك من رسول الله (ﷺ)
وموضعك من قريش فلست أدفعه .

وقد رد عليه "علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه ، واستمرت المكابحات
بينهما طويلاً حتى كانت الحرب ، فلنقف عند هذا القدر، ونكتف بما ذكرناه من
نماذج لضيق المقام .

النثر العلمي

أما النثر العلمي الذي يقصد به التهذيب العقلى والتأليف والتصنيف فالعقل أن العصر الجاهلى والإسلامى لم يظفروا منه بشئ ، إذ أن ذلك يستتبع حياة علمية ناضجة ، واستقراراً هادئاً ، ولم يتواتر شيء من ذلك إلا قليلاً نادراً فى بعض مدن الحجاز ، ولكن انعدام الكتابة وغلبة العمل الاقتصادي قد حال دون بحث أو تقرير علمي .

ولما ظهر الإسلام شغل العرب الفتوح ونشر الدين أولاً ، وبالفن الداخلي ثانياً مدة القرن الأول ، وكانت الخطابة والشعر والكتابة تساير ذلك كله ، فانقضى ذلك العهد دون أن يدون كتاب ، إلا ما كان من أمر لقرآن في إثباته على الرقاع ونحوها مدة "أبي بكر" وفي المصحف على عهد "عثمان" وكان اعتماد القوم فى دينهم ودنياهم على كتاب الله ، وسنة رسوله ، وحين الاشتباه يكون مرجعهم إلى الخلفاء والفقهاء ، والاجتهاد ، حتى أقوال النبي (ﷺ) وفتاوي صحابته لم يدونوها "اللهم إلا ما سبق من موقف" عبد الله بن عمرو بن العاص "مخالفة أن ينتهي بهم التدوين إلى إهمال الحفظ ، والاعتماد على الكتاب المعرض للضياع والتصحيف والتحريف ، وفي كل ذلك من الأضرار ما كانوا يخزرون ، ولو لا اشتداد الخلاف بين القراء فى الأمصار ، ما أقدم "عثمان" رضى الله عنه على نسخ القرآن .

ولما دخل الأجانب فى الإسلام ولهم عراقة ورسوخ فى العلوم والحضارات أخذ المسلمون فى التفكير والإنتاج العلمى والتأليف والمصنف نشأت الكتابة العلمية منذ أواخر العصر الأموى ، وظهرت بشكل واسع ومنظم فى العصر

العبيسي، وجملة القول أن الحياة الإسلامية وجد فيها فنون من النثر الأدبي دون النثر العلمي، تلك النثر الفني الذي علت منزلته، وارتقت قيمته، لأنه أسلوب الدعوة الدينية وأداة الهدایة التشريعية، ووسيلة البيان للأصول والاحكام بالفاظ عربية فصيحة، سمحه عذبة لا يُكِدُ الألسنة ولا تنبو عن الأفئدة، ولا تقول على الأسماع مجانية لكل وحشى غريب، أو متنافر تُقْبِل تائراً بفصاحة القرآن وفصاحة النبي (ﷺ).

خطبة أبي بكر

"إن الله تبارك وتعالى لا تختص نعمه ، ولا تبلغ جراءها الأعمال ، فله الحمد كثيراً على ما أصطنع عندكم فقد جمع لكمتكم ، أصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع أن تشركوا بالله ، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره ، فالعرب اليوم بنو أم وأب وقد أرزوهم أن استغفروهم إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ، وبجعل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في تلك الحظ الأوفر ، فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين ، مستوجبًا على الله عزوجل ثواب المجاهدين ، هذا رأيي الذي رأيت فليبشر على أمرٍ ببلغ رأيه ."

ثم إن أبي بكر - رحمة الله عليه ورضوانه - قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وذكره بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ - ثم قال :-
 يا أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأعزكم بالجهاد ، وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين ، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام ، فإني مؤمر عليكم أمراء وعاقد لهم ألوية ، فأعطيوا ريشكم ، ولا تخالفوا أمراءكم ، ولتحسن نيتكم وسيرتم ومعلمكم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ."

خطبته بعد البيعة

حمد الله وأثنى عليه . ثم قال :-

" أيها الناس: إني قد ولّت عليكم ولست بخيركم ، لأن رأيتموني على حق فاعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطليعوني ما أطعنت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لـ عليكم ، إلا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه، أقول قولـي هذا وأستغفر لله لي ولكم ".

خطبة له في الأنصار

ووصل إليه مال من البحرين فساوى فيه بين الناس فغضبت الأنصار ، وقالوا له فضلنا ، فقال " أبو بكر " صدقـتم . إن أردـتم أن أفضـلكم صارـما عـملـتمـوهـ للـدـينـيـاـ وـانـ صـيرـتـ كـانـ ذـكـرـ اللـهـ - عـزـ وـجـلـ - فـقـالـواـ :ـ وـالـلـهـ مـاـ عـمـلـنـاـ إـلـاـ اللـهـ تـعـالـىـ وـاـنـصـرـفـواـ فـرـقـيـ "ـ أـبـوـ بـكـرـ"ـ المـنـبـرـ ،ـ فـحـمـدـ اللـهـ وـأـثـنـىـ عـلـيـهـ وـصـلـىـ عـلـىـ النـبـيـ (ﷺ)ـ نـهـ قـالـ ،ـ "ـ يـاـ مـعـشـرـ الـأـنـصـارـ :ـ إـنـ شـنـتـمـ أـنـ تـقـولـواـ إـنـ أـوـيـنـاـكـمـ فـيـ ظـلـلـاـنـاـ ،ـ وـشـاطـرـنـاـكـمـ فـيـ أـمـوـالـاـنـاـ ،ـ وـنـصـرـنـاـكـمـ بـأـنـفـسـنـاـ قـلـتـ :ـ إـنـ لـكـمـ مـاـ فـضـلـ مـاـ لـيـ بـحـصـبـهـ العـدـدـ وـإـنـ طـالـ بـهـ الـأـمـدـ .ـ فـتـحـنـ وـأـنـتـمـ كـمـاـ قـالـ "ـ طـفـلـ الـغـنـوـيـ "ـ :

جزـىـ اللـهـ عـنـاـ جـعـفـرـأـ حـينـ أـرـلـقـنـيـ	بـنـاـ نـعـلـنـاـ فـيـ الـوـاطـنـيـنـ فـزـلتـ
لـبـواـ أـنـ يـمـلـوـنـاـ وـلـوـ أـنـ لـمـنـاـ	تـلـلـىـ الـذـىـ يـلـقـونـ مـنـاـ لـمـلـتـ
هـمـ لـسـكـنـوـنـاـ فـيـ ظـلـلـ بـيـوـتـهـمـ	ظـلـلـ بـيـوـتـ أـنـفـاتـ وـأـظـلـتـ

خطبة عمر

فقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال ،

"الحمد لله الذي يخص بالخير ما يشاء من خلقه ، والله ما استيقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضل الله يؤتى به من يشاء ، قد والله أروع لقاءك لهذا الرأي الذي ذكرت فيما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن فقد أصبحت ، أصحاب الله بك سبيل الرشاد ، وسرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فإن الله - عزوجل - ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ، ومنجز ما وعد رسوله .

وخطب أيضاً ، فقال بعدها حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ :-

"أيها الناس، إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى وإنكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وأنتم مُؤجلون في دار غرور، كنتم على عهد رسول الله ﷺ تؤخرون بالوحى ، فمن أسرّ شيئاً أخذ بسريرته ، ومن أعلن شيئاً أخذ بعلنته ، فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فإن من أظهر لنا قبيحاً ونعم أن سريرته حسنة لم تصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظلمنا به حسناً واعلموا أن بعض الشجاع شعبة من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شع نفسه فاؤنك هم المفحون ، أيها الناس أطيبوا مثواكم ، وأصلحوا أموركم وانقوا الله ربكم ، ولا تلمسوا نساءكم القباضي فإنه إن لم يشف فإنه يصف أيها الناس ، إني لوددت أن أجwo كفافاً لا لي ولا على ، وإنني لأرجو أن عمرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وأن يبقى أحد من المسلمين وإن

كان في بيته إلا أتاه حقه وتنصبه من مال الله وإن لم يعمل إليه نفسه، ولم ينصب إليه بدنـه، وأصلاحـوا أموالـكم التي رزقـكم اللهـ، والقليلـ في رفقـ خـيرـ منـ كـثيرـ فـي عـنـفـ، والقتلـ حـتـفـ منـ الحـتـوفـ يـصـيبـ البرـ والـفـاجـرـ، والـشـهـيدـ منـ اـحـتـسـبـ نـفـسـهـ إـنـا أـرـادـ أـحـدـكـمـ بـعـدـأـ قـلـيـعـمـدـ إـلـىـ الطـوـيلـ العـظـيمـ قـلـيـضـرـيـهـ بـهـ بـعـضـاـ فـإـنـ وجـهـ جـدـيـدـ الـغـوـادـ فـلـيـشـتـرـهـ".

وخطـبـ أـيـضاـ فـحـمـدـ اللـهـ وـأـنـسـ عـلـيـهـ، ثـمـ قـالـ:

"أـيـهاـ النـاسـ: مـنـ أـرـادـ أـنـ يـسـأـلـ عـنـ الـقـرـآنـ، فـلـيـأـتـ "أـبـيـ بنـ كـعبـ"، وـمـنـ أـرـادـ أـنـ يـسـأـلـ عـنـ الـفـرـائـضـ فـلـيـأـتـ "زـيـدـ بنـ ثـابـتـ"، وـمـنـ أـرـادـ أـنـ يـسـأـلـ عـنـ الـفـقـهـ فـلـيـأـتـ "مـعـاذـ بنـ جـبـلـ"، وـمـنـ أـرـادـ أـنـ يـسـأـلـ عـنـ الـمـالـ فـلـيـأـتـنـيـ، فـإـنـ اللـهـ جـعـلـنـيـ لـهـ خـارـجـاـ وـقـاسـمـاـ، إـنـيـ بـادـئـ بـأـزـوـاجـ رـسـوـلـ اللـهـ (ﷺ) فـمـعـطـهـنـ ثـمـ الـمـهـاجـرـينـ الـأـولـينـ الـذـيـنـ أـخـرـجـوـاـ مـنـ دـيـارـهـمـ وـأـمـوـالـهـمـ أـنـاـ وـأـصـحـابـيـ، ثـمـ بـالـأـنـصـارـ الـذـيـنـ تـبـوـءـوـاـ الدـارـ وـالـإـيمـانـ مـنـ قـبـلـهـمـ، ثـمـ مـنـ أـسـرـعـ إـلـىـ الـهـجـرـةـ أـسـرـعـ إـلـىـ الـعـطـاءـ، وـمـنـ أـبـطـاـ عـنـ الـهـجـرـةـ أـبـطـاـ عـنـ الـعـطـاءـ، فـلـاـ يـلـوـمـنـ رـجـلـ إـلـاـ مـنـاخـ رـاحـلـتـهـ، إـنـيـ قـدـ بـقـيـتـ فـيـكـمـ بـعـدـ صـاحـبـيـ فـابـتـلـيـتـ بـكـمـ وـابـتـلـيـتـ بـيـ، وـإـنـيـ لـنـ يـحـضـرـنـيـ مـنـ أـمـورـكـمـ شـيـئـاـ إـلـىـ غـيرـ أـهـلـ الـجـزـاءـ وـالـأـمـانـةـ، فـلـثـنـ أـحـسـنـوـاـ لـأـحـسـنـنـ إـلـيـهـمـ وـلـثـنـ أـسـاءـوـاـ لـأـنـكـلـنـ بـهـمـ".

خطبة على بن أبي طالب

الحمد لله الذي بعث محمداً نبياً، وبعثنا رسولاً فتحن بيت النبوة
ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة من طلب، ولنا حق أن نعطيه نأخذ
وإن نمتعه نركب أغذار الإبل، ولو طال السرّى، لو عهد إلينا رسول الله (ﷺ) عهداً
لأنفذنا عهده ولو قال لنا قولاً أجادلنا عليه حتى نموت، لن يسع أحد قبلى إلى
دعوة الحق، وصلة رحم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اسمعوا كلامي، وَعُوا منطقى
عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا المجمع تنتصى فيه السيف، وتخان فيه
الجهود، حتى تكونوا جماعة، ويكون بعضكم أئمة لأهل الضلال، وشيعة لأهل
الجهالة، ثم إنما يقول،

فلن تك جاسم هلكت فإني
بما فعلت بنو عبدين ضخم
مطبع في الهواجر كلّ على
 بصير بالنوى من كلّ نجم

خطبة لعلى

وخطب "على" لما سار "الزبير وطلحة" من مكة ومعهما "عائشة" يريدون
"البصرة" فقال:-

"أيها الناس إن عائشة سارت إلى البصرة، ومعها طلحة والزبير"
وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبة، أما طلحة فابن عمها، وأما الزبير
فختنها، والله لو ظفروا بما أرادوا - ولن ينالوا ذلك أبداً - ليضريرن أحدهما عنق
صاحبه بعد تنازع بينهما شديد، والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة
ولا تحل عقد إلا في معصية الله وسخطه حتى تورى نفسها ومن معها موارد الهلاكة
إى والله ليقتلن ثلثهم، ولبيهرين ثلثهم، ولبيتونين ثلثهم، وإنها التي تنجها كلاب
الحوائب، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان، ورب عالم قتلته جهله، ومعه علمه
لا ينفعه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، فقد قامت الفتنة فيها الفتنة الباغية أين
المحسنين؟ أين المؤمنون؟ مالي ولقريش! أما والله لقد قتلتهم كافرين ولا قتلتهم
مقتولين، وما نالنا إلى عائشة من ذنب إلا أننا أدخلناها في حيّرنا، والله لأبقرن
الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقال لقريش فلتضع ضجيجها، ثم نزل.

خطبة على بن أبي طالب

فلم يرجع "القعقاع" من عند أئم المؤمنين ، وملحمة والزبير ، جمع الإمام على الناس ، ثم قام على الغرائز ، فَخَمِدَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَ - وَصَلَى عَلَى النَّبِيِّ (ﷺ) وَذَكَرَ الْجَاهِلِيَّةَ وَشَقَاها ، وَالْإِسْلَامَ وَالسَّعَادَةَ ، وَإِنْعَامَ اللَّهِ عَلَى الْأَمَّةِ بِالْجَمَاعَةِ بِالْخَلِيفَةِ بَعْدِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ حَدَثَ هَذَا الْحَدِيثُ ، الَّذِي جَرَّهُ عَلَى هَذِهِ الْأَمَّةِ أَقْوَامٌ طَلَبُوا هَذِهِ الدِّينِ ، حَسَدُوا مِنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَى الْفَضْيَلَةِ ، وَأَرَادُوا رَدَّ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَنْبَارِهَا ، وَاللَّهُ بِالْغَمْرِ أَمْرُهُ ، وَمَصِيبُ مَا أَرَادَ إِنِّي رَاحِلٌ غَدًا فَارْتَحِلُوا ، أَلَا وَلَا يَرْتَحِلُنَّ غَدًا أَحَدٌ أَعْنَانَ عَلَى "عُثْمَانَ" - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِشَيْءٍ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ ، وَلِيَغُنِّ السَّفَهَاءُ عَنِ اتِّنْفُسِهِمْ .

خطبة الأحنف بن قيس

بين يدي عمر بن الخطاب

قديم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -
في أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كل واحد منهم
ونكله الأحنف فقال ،

" يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أنتك وفود أهل العراق
وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك
الجبابرة ، ومنازل كسرى وقيصر وبنوا الأصفر ، فهم من المباء العذيبة والجنان
المخصبة في مثل حولاء السلى ، وحقيقة البعير الغاسقة ، تأثيرهم شارهم عضة قبل
أن تغير ، وإننا معشر أهل البصرة نزلنا أرضاً سبخة هشاشة ، زعقة نشاشة
طرف في مقلاة ، وطرف في ملح أحاج ، جانب منها منابت القصب ، وجانب
سبخة نشاشة لا يجف تراها ، ولا ينبع مرعاها ، تأثيرنا منافعها في مثل مريء
النعامة ، يخرج الرجل الضعيف مما يستعبد الماء من فرسخين وتخرج المرأة بمثل
ذلك ترائق ولدها تربيق العذر تخفاف عليه العدو والسبع ، دارنا نعمة ، ووظيفتنا
ضيقة ، وعدتنا كثيراً وأطراقنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ، ودرهماً كبير ، وفقيرنا
صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا ، فوسع علينا يا أمير المؤمنين ، وزدنا
وظيفة توظف علينا وتعيش بها ، فإذا ترفع خبستنا ^(١) ، وتتشعر ركبستنا ^(٢) ، وتجبر
فاقتنا وتزد في عبالنا عيالاً ، وفي رجالنا رجالاً ، وتصغر ^(٣) درهماً ، وتكبر فقيتنا
وتأمر لنا يحفرنها تستعبد به الماء ، هلكنا ".

قال عمر : هنا والله السيد ، هنا والله السيد ، قال الأحنف : فما رألت

أسمعها بعدها .

١ - رفت من خبيثته : فقلت به فعلاً فيه رفعته .

٢ - الركب : قلب أول الشئ على لآخره . وارتكب : انتكب ووقع .

٣ - صقرة : صبغة بصرفة ، أى ثقلنا بالدرهم الأثمين ديلاراً أصفر ، وتجعل فضتنا ذهباً

خطبة الأحنف بن قيس

فقام الأحنف فقال :

"يا أمير المؤمنين : إن مفاتيح الخير بيد الله ، والحرصن قائد الحرمان
فاتق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيمة قبلاً ولا قائلاً ، واجعل بينك وبين رعيتك من
العدل والإنصاف شيئاً يكفيك وقادمة المفود ، واستسماحة المباح ، فلين كل أمرئ
يجمع في وعائه إلى الأقل من عسى أن تقتسم الأعين فلا يوقد إليك ." .

خطبة عمرو بن محمد كرب الزبيري

ثم قام عمر بن محمد يكرب الزبيري فقال :-

"إذا المرء بأصفره : قلبه ولسانه ، فبلغ المطلق الصواب وملاك النجعة
الارتياح ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف
الحيرة فاحتجبْ صاعتنا بلفظك واكتظم بادرتنا وإن لنا كذلك يسلس لك قيادنا فإننا
أناس لم يوّقس صفاتنا قراع مناقير ، من أراد لنا قضاها ولكن منعنا حماتنا من كل
من رأى لنا هضماً ."

خطبة قيس بن ساعدة الإيادى

خطب خطبة قيس بن ساعدة الإيادى بسوق عكاظ ، فقال :

"أيها الناس : اسمعوا واعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو أتى
آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال
مراسة وأرض مدحاة ، وأنهار مجردة . إن في السماء لخبر ، وإن في الأرض لعبرنا
ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فاقاموا أم تركوا فناموا ؟ يقسم قسّ
بالله قسماً لا إثم فيه : إن الله ديننا هو أرضي له ، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه
إنكم لتأتون من الأمر منكراً . ويرفع أن قساً إنها بعد ذلك يقول :

فِي الْذَاهِبِينَ الْأُولَئِينَ مِنَ الْقَرْوَنِ لَنَا بِصَائِرٍ
لَمَارَأَيْتَ مَسْوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لِأَمْصَائِرٍ
وَرَأَيْتَ قَوْمًا نَحْوَهَا تَمْضِي الْأَكْبَارُ وَالْأَصْغَارُ
وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَايَرَ لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيْنَا
لَهُ حِيثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرٌ أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا

خطبة قُسٌّ بن ساعدة عند قيصر

وكان قُسٌّ بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق .

الوصايا

الوصية هي : " قول حكيم مُجرب للأمور ، قد خبر الدنيا ، وسير أغوارها وتلك ليقينها من يجيئ بعده وتكون نيرأسأله يضيئ أمامه الطريق اللاحر لنجاه العقبات ويفادي الأزمات ، وينجو بنفسه من المهاكلات .
ونقول معاجم اللغة : وصي ، أوصي الرجل ووصاه : عهد إليه .
قال رؤبة : " وصانى العجاج فيما وصتني .

أراد فيما وصاني ، فحذف اللام للقافية ، وأوصيت له بشيء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيئك . وأوصيته ووصيته إيماءً وتوصية بمعنى . وتواصي القوم أي أوصي بعضهم بعضاً .

وفي الحديث : " استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان ، والإسم الوصاة والوصاية والوصاية والوصية أيضاً : ما أوصيت به .
والوصي : الذي يوصي والذي يوصي له وهو من الأصداد ، ابن سيده :
الوصي الموصي الموصي ، والأئمَّة وصي ، وجمعهما جمِيعاً أوصياء ، ومن العرب من لا يثنى الوصي ولا يجمعه الْأَثِيث : الوصاة كالوصية وأنشد :

ألا من مبلغ عنى يزبدا وصاة من أخي ثقة ودود
يقال ، وصى بين الوصايا والوصية ، ما أوصيت به ، وسميت وصية لاتصالهما
بأمر البيت ، وقيل لعلى ، عليه السلام - وصيٰ لا تصال نسبه وسبه وسمته بنسب
سيدنا رسول الله (ﷺ) قلت : كرم الله وجه أمير المؤمنين على وسلم عليه هذه
صفاته عند السلف الصالح رضي الله عنهم - ويقول فيه غيرهم : لولا دعابة فيه
وقول كثير ،

تُخَيِّرُ مِنْ لَا فِيْتَ أَنْكَ عَادِيْرَ
بل العائز المحبوب في سجن عازم
ووصي النبي المصطفى وبين عمه
وفدك أفال وفاضي معازم

وقوله - عزوجل - : « يُؤْمِنُكُمُ اللَّهُ فِيْ أَنْكُدُوكُمْ » [الناء: ١١]

معناه يفرض عليكم لأن الوصبة من الله إضا هي فرض ، والدليل على ذلك
قوله تعالى : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّسَرَ أَلَّا يَرْجِعَ دَلْكُ وَسَكُونُهُ لَكُمْ مَنْ يُرِيدُ » [آل عمران: ٥٦]

[الأنعام: ١٥١]

وقوله : « وَوَعَنِيهَا إِذْ يَوْمَ يُنْذَرُهُ » [البرة: ١٣٢]

وقوله « شَيْعَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا وَعَنْ يَدِهِ تُؤْمِنُ » [الشورى: ١٣]

وقوله : « وَيَمْهِدُ أَنَّهُ أَنْقُوْذَيْكُمْ وَسَكُونُهُ لَكُمْ تَذَكُّرُكُمْ » [آل عمران: ٥٧]

وهذا من الفرض المحكم علينا .

وقوله تعالى : « أَنْرَاسَأِلِيدِهِ » [الناريات: ٥٣]

ويقول سبحانه وتعالى : « وَتَوَاصُوا بِالْحَيْثِ وَتَوَاصُوا بِالصَّبَرِ » [العصر: ٣]

وقوله : « وَتَوَاصُوا بِالصَّبَرِ وَتَوَاصُوا بِالْمَرْجَدِ » [البلد: ١٧]

قال أبو منصور : أى أوصى أولئم آخرهم ، والألف ألف استفهام ومعناه التوبيخ
وتواصوا : أوصى بعضهم بعضاً ، ووصى الرجل وصياً وصله ، ووصى الشئ بغيرة وصياً
وصله ، أبو عبيد : وصيّت الشئ ووصلته سواء ، قال ذو الرمة ،
وصى الليل بالأيام حتى صلاتنا مقايسة يشقّ أنصافها السفر
يقول : رجع صلاتنا من أربعة إلى اثنين في أسفارنا الحال السفر .
قال الأصماعي : وصى الشئ يصي إذا اتصل ، ووصاه غيره يصييه : وصله (١).

١ - نسان العرب - لابن منظور ، المجلد السادس ، مادة (وصى) من ٤٨٥٣ وما بعدها - دار المعرفة .

وصية "عمر" لـ "أبي عبيد بن مسعود"

تقىد "عمر" إلى "أبي عبيد بن مسعود" فقال :

"إنك تقدم على أرض المكر والخداعة ، والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم قد جرأوا على الشر فعملوه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون واخزن لسانك ولا تفشن سرك فإن صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيغه كان بمضيغة .

٢- وصيته لـ "سعد بن أبي وقاص"

وصى "سعد بن أبي وقاص" حين أمره على حرب العراق فقال :

"أبا سعد بن أبي وقاص، لا يغرنك من الله أن قبل خال رسول الله (ﷺ) فإن الله - عزوجل - لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله ليس بيته وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، والله ربيهم وهم عباده ، يتفضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت النبي (ﷺ) منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين .

وصيته للمجاهدين

كان "عمر بن الخطاب" - رضى الله عنه - يقول عند عقد الألوية ، "بسم الله وبالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعذبين ولا تجنبوا عند اللقاء ولا تقتلوا عند القدرة ولا تسرفو عند الظهور^(١) ، ولا تقتلوا هرِمَا ، ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارة عليهم^(٢) .

وصيحة "عمر" لـ "يعلى بن أمية" في إجلاء أهل نجران

روى الطبرى قال :

كان أول بعثت بعثه "عمر" بعث أبي عبيد ثم بعث "يعلى بن أمية" إلى اليمن ، وأمره بإجلاء أهل نجران لوصيحة رسول الله ﷺ (في مرضه بذلك ، ولوصيحة أبي بكر - رحمة الله - بذلك في مرضه - وقال : "إئتهم ولا تفتقنهم عن دينهم ثم أحيلهم من أقام منهم على دينه ، وأقر بالarkan ، وامسح أرض كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان ، وأعلن لهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله لا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجنوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضًا كارضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بزمتهم ، فيما أمر الله من ذلك بدلاً بيدهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار بجيранهم بالريف .

١ - الخلية .

٢ - من الغارة عليهم صيغها من كل وجه .

وصية أبي طالب لوجوه قريش عند موته

لَا حضُرْتَ "أبا طالب" الْوَفَّاقَ جَمِيعَ إِلَيْهِ وَجْهَهُ قَرِيشَ فَأَوْصَاهُمْ فَقَالَ ،

"يَا مُعْشِرَ قَرِيشٍ أَنْتُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَقَلْبُ الْعَرَبِ ، فِيمَكُمُ السَّبِيلُ
الْمُطَاعِ ، وَفِيمَكُمُ الْمُقدَّامُ الشَّجَاعُ ، الْوَاسِعُ الْبَاعُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَمْ تُنْتَرِكُوا لِلْعَرَبِ
فِي الْمَأْتِيرِ نَصِيبًا إِلَّا أَحْرَزْتُمُوهُ ، وَلَا شَرْفًا إِلَّا أَدْرَكْتُمُوهُ ، فَلَكُمْ بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ
الْفَضِيلَةِ ، وَلِهِمْ بِإِلَيْكُمُ الْوَسِيلَةُ ، وَالنَّاسُ لَكُمْ حَرْبٌ ، وَعَلَى حَرْبِكُمُ الْأَبْ(١) ، وَإِنِّي
أَوْصِيكُمْ بِتَعْظِيمِ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - فَلَنْ فِيهَا مَرْضَةٌ لِلرَّبِّ وَقَوْمًا لِلْمَعَاشِ
وَثَبَاتًا لِلْوَطَاءِ ، صَلُوا أَرْحَامَكُمْ فَإِنْ صَلَةُ الرَّحْمِ مُنْسَأَةٌ(٢) فِي الْأَجْلِ ، زِيادةً فِي الْعَدْدِ
أَتَرْكُوا الْبَغْيَ وَالْعَقُوقَ ، فَفِيهِمَا أَهْلُكَتِ الْقَرْوَنَ قَبْلَكُمْ ، أَجْبَيْوْا الدَّاعِيَ ، وَأَعْطَوْا
السَّائِلَ ، فَإِنْ فِيهِمَا شَرْفُ الْحَيَاةِ وَالْمَاتَةِ ، وَعَلَيْكُمْ بِصَدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ
فَإِنْ فِيهَا مَحْبَةٌ فِي الْخَاصِّ ، وَمَكْرَمةٌ فِي الْعَامِ .

وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِمُحَمَّدٍ خَيْرًا ، فَإِنَّهُ الْأَمِينُ فِي قَرِيشٍ وَالصَّدِيقُ فِي الْعَرَبِ
وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِأَمْرِ فِيَّهُ الْجَنَانَ(٣) وَأَنْكَرَهُ الْلِّسَانُ
مُخَافَةُ الشَّتَّاتِ ، وَأَيْمَ اللَّهِ كَائِنٌ أَنْظَرَ إِلَيْهِ مُصَالِبَ الْعَرَبِ وَأَهْلَ الْأَطْرَافِ
وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ النَّاسِ قَدْ أَجَابُوا دُعُوتِهِ وَصَدَقُوا كَلْمَتِهِ ، وَعَظَمُوا أَمْرَهُ ، فَخَاضُ
بِهِمْ غُرَرَاتُ الْمَوْتِ ، وَصَارَتْ رُؤُسَاءُ قَرِيشٍ وَصَنَادِيدُهَا ، وَدُورُهَا خَرَابًا ، وَضَعْفَاؤُهَا
أَرِيَابًا ، وَإِذَا أَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ أَحْوَجُهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ أَحْظَاهُمْ عَنْهُ ، قَدْ

- أَيْ نُورُ الْبَٰبِ : وَالْأَبْ : التَّبَّيِّرُ عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ حِيثُ لَا يَعْلَمُ .

٢ - أَيْ فَسْحَةٌ وَالْإِدَادُ : مِنْ نَسَاءِ أَيْ أَخْبَرِهِ .

٣ - الْقَلْبُ .

محضته^(١) العرب ، ونادها ، وأصفت له بلادها ، وأعطيته قيادها ، يا معاشر قريش ،
كونوا له ولة ، ولحربيه حماة ، والله لا يسلب أحد سبile إلا رشيد ولا يأخذ بهديه
أحد إلا سعد ، ولو كان لنفسي مدة وفي أجلى تأخير ، لكتفت عنه الهزاهز^(٢) ،
ولدافعت عنه الدواهي .

وصية عمر بن حبيب الصحابي لبنيه

أوصى "عمر بن حبيب" بنيه فقال :

'يا بني إياكم ومخالطة السفهاء ، فإن مجالتهم داء ، وإن من يحلم
عن السفهية يُسرّ بحلمه ، ومن يجده يندم ، ومن لا يقرّ بقليل ما يأتي به السفهية ، يقر
بالكثير ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المذكر ، فليوطن قبل ذلك
على الأنبياء ، ولديون بالثواب من الله - عزوجل - إنه من يومن بالثواب من الله -
عزوجل - لا يجد من الأنبياء .

وصية "دريد بن الصمة"

قال "دريد بن الصمة" مالك بن عموف النصري ، قائد هوانن يوم حنين :
'يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم له ما بعده من
أيام ، مالي أسمع رُغَاء البعير ، ونهيق الحمير ، وبكاء الصغير ، وزمام الشاة ، قال :
سُقْتَ مع الناس أبنائهم ونسائهم وأموالهم قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل حلف
كل رجل أهله وما له ليقاتل عنهم ، فأنقض به ، ثم قال راعي ضأن والله ، وهل يرد

١ - محضته الود : وأمحضه : أخذه .

٢ - الهزاهز والهزهزة تحريك البلايا والحروب الناس .

المنهزم عن شيء؟ إنها إن كانت لك ، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فتحت في أهلك ومالك .

ويحك إنك لم تصنع بتقديم البيضة ، بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ارفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعلياء قومهم ، ثُن ألق الصبا على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من ورائك ، وإن كانت عليك ، كنت قد أحرزت أهلك ومالك قال : لا والله ما أفعل إنك قد كبرت وذهلت عقلك .

قال " دريد " ، هذا يوم لم أشهدك ، ولم يفتني ثم أنشأ يقول ،

يَا لِيْتَنِي فِيهَا جَازَعَ أَحَبَّ فِيهَا وَاضَعَ
أَفَوْدَ وَطْفَاءَ الزَّمْعَ كَأَنَّهُ شَاهَ صَدَعَ

وصية : قيس بن عاصم المنقري " لبنيه

أوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه فقال :

" يا بني خذوا عنى ، فلا أحد أصلح لكم مني ، إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رجالكم ، فسودوا أكبركم ، فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلقو أباهم ، وإذا سودوا أصغرهم أربى ذلك بهم في أكفائهم ، وإياكم ومعصية الله ، وقطيعة الرحم وتسكعوا بطاعة أمرائهم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضاع ، عليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه منبهة للكرم ، وجنة اللثيم ، وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل وإن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنهاية ، فإني سمعت رسول الله (ﷺ) ينهى عنها ، وادفنوني في ثبابي التي كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكربين وأئل " بمدفني ، فقد كانت بيتي وبينهم مشاحنات في الجاهلية والإسلام ، وأخاف أن يدخلوا عليكم بي عاراً ، وخذلوا عنى ثلاث خصال : إياكم وكل عرق لثيم

أن تلابسوه فإنه إن يسرركم اليوم ، يسوكم غداً ، واكظموا الغيط ، واحذروا بنى
أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال ،
أحيا الضغائن آباء لنا سلفاً فلن تبهد وللآباء آباء

وصية أخرى

أمد "أبا بكر رأيا عبيدة" بجيش عليه "عمرو بن العاص" فلما أراد
الشخص خرج معه "أبو بكر" - رضي الله عنه - يشيعه وقال :
"يا عمرو إنك ذورأى وتجربة بالأموي وتبصرة بالحرب ، وقد خرحت مع
أشراف قومك ، ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تثلهم
نصيحة ، ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود في الحرب ، مبارك
في عواقب الأمور ، فقال له عمرو : ما أخلفني أن أصدق ظنك وأن أقبل رأيك
ثم ودعه وانصرف .

وصيته لشريحبيل بن حسنة

ووجه "شريحبيل بن حسنة" وودعه فقال له : يا شريحبيل ، ألم تسمع وصيتي
ليرزيد بن أبي سفيان "؟ قال : بلى .
قال : فلاني أوصيك بخصال أغلقت ذكرهن "ليرزيد" أوصيك بالصلة في
وقتها ، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تقتل وبعيادة المرضى ، وبحضور الجنائز
ونذكر الله كثيراً على كل حال .

وصيته لـ "أبي عبيدة بن الجراح"

وَطَا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ "أَبَا عَبِيدَةَ بْنَ الْجَرَاحَ دُعَاءً فَوَدَعَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ ،
اَسْمَعْ سَمَاعَ مِنْ يَرِيدُ أَنْ يَفْهُمَ مَا قَبْلَهُ ، ثُمَّ يَعْمَلُ بِمَا أَمْرَبَهُ إِنْكَ تَخْرُجُ
مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ ، وَبِيُوتَاتِ الْعَرَبِ ، وَصَلَحَاءِ الْمُسْلِمِينِ ، وَفَرْسَانِ الْجَاهِلِيَّةِ
كَانُوا يَقَاتِلُونَ إِذْ ذَاكَ عَلَى الْحَمِيمَةِ وَهُمْ الْيَوْمُ يَقَاتِلُونَ عَلَى الْحَسَبَةِ وَالنِّيَّةِ الْحَسَنَةِ
أَحْسَنُ صَحْبَةٍ مِنْ صَحْبِكَ ، وَلِيَكُنَّ النَّاسُ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءٌ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ
وَكَفِيَ بِاللَّهِ مَعِينًا ، وَتَوَكِّلْ عَلَيْهِ وَكَفِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا ، أَخْرُجْ مِنْ غَدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وصيته لـ "ابي عبيدة بن الجراح" أيضاً

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ خَرَجَ "أَبُوبَكَرٌ" - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَمْشِي فِي رَجَالِ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ، حَتَّى أَتَى أَبَا عَبِيدَةَ ، فَسَارَ مَعَهُ حَتَّى بَلَغَ ثَنْيَةَ الْوَدَاعِ ، ثُمَّ قَالَ حِينَ أَرَادَ
أَنْ يَفَارِقَهُ : "يَا أَبَا عَبِيدَةَ ، أَعْمَلْ صَالِحًا ، وَعَشْ مَجَاهِدًا ، وَتَوَفَّ شَهِيدًا يَعْطِلُكَ
اللَّهُ كِتَابَ بِيَمِينِكَ ، وَلَا تَقْرَئُ عِنْتَكَ فِي دِنِّكَ وَآخِرَتَكَ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ
مِنَ الْتَّوَابِينَ الْأَوَابِينَ الْمُخْبِتِينَ الرَّاهِدِينَ فِي الدِّنِّيَا ، الرَّاغِبِينَ فِي الْآخِرَةِ ، إِنَّ اللَّهَ
قَدْ صَنَعَ بِكَ خَيْرًا ، وَسَاقَهُ إِلَيْكَ ، إِذْ جَعَلَكَ تَسْبِيرَ فِي جَيْشِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدُوِّهِ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَاتَلَ مِنْ كُفَّارَ اللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ ، وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ .

وصية "أبي بكر" لـ "هاشم بن عتبة"

ولما سار "هاشم بن عتبة" ودمه "أبو بكر" - رضي الله عنه - وقال له :

"يا هاشم إنما كنا ننتفع من الشبح الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره
وكنا ننتفع من الشاب بصيره ، وبآسنه ونجدته ، وإن الله - عزوجل - قد جمع لك
تلك الخصال كلها وأنذت حديث السن ، مستقبل الخير ، فلما لقيت عدوك فاصبر
وصابر واعلم أنك لا تخظو خطوة ، ولا تنفق نفقة ولا يصبك ظمآن ولا تصب
ولا مخصصة في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملاً صالحاً ، إن الله لا يضيع أجر
المحسينين .

فقال هاشم ، إن يرد الله بي خيراً يجعلنى كذلك ، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله
وأنا أرجو إن أنا لم أقتل أن أقتل ثم أقتل إن شاء الله .

فقال له عمده "سعد بن أبي وقاص" - رضي الله عنه - : "يا ابن أخي لا
تعلن طعنة ولا تضررين ضرورة إلا وأنست تزيد بها وجه الله ، وأعلم أنك خارج من
الدنيا رشيداً ، وراجع إلى الله قريب ، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدم
صدق قدمنه ، أو عمل صالح أسلفته .

فقال أبي عم : لا تخالن مني غير هذا ، إنني إذاً لمن الخاسرين إن جعلت
حلى وارتخالي وغدوى ورواحى وسيفى وطعنى برمحي وضربي بسيفى رباء للناس
ثم خرج فقدم على أبي عبيدة فتباشر بمقيدة المسلمين .

وصية أبي عبيدة للمسلمين

وقد أصابه طاعون عمواس

وكان طاعون عمواس قد عُمِّ أهل الشام (سنة ١١ هـ) ومات فيه بشر كثيرون
ومات فيه أبو عبيدة - رحمه الله - .

ولما طُعِنَ "أبو عبيدة" وهو بالأردن ، دعا المسلمين ، فلما دخلوا عليه قال :
"إني أوصيكم بوصية إن قيلتموها لم تزالوا بخير ما بقيتم ، وبعد ما تهلكون
أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا وتصدقوا ، وحجوا واعتمروا وتواصروا وتحابوا
واصدقوا أمرائكم ولا تخشوهم ، ولا تلهكم الدنيا فإن أمرؤ لوطيرَ ألف حول ما كان
له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون وإن الله قد كتب الموت على بني آدم
فهي ميتون وأكرمه منهم أطْوَعُهم لربه ، وأعلمهم ليوم ميعاده ، ثم قال :
"بما معاذ صلٌ بالناس ، فصلٌ معاذ بالناس ومات أبو عبيدة - رحمه الله ."

وصية لـ "معاذ بن جبل"

ثم صلى ورجع إلى منزله فإذا هو بابنه عبد الرحمن قد طُعِنَ ، فلم يلبث
إلا قليلاً حتى مات يرحمه الله ، وصلى عليه معاذ ثم دفنه فلما راجع معاذ إلى
منزله طعن فاشتد به وجعه ، وجعل أصحابه يختلفون إليه فإذا أتاه أصحابه أقبل
عليهم .

فقال لهم ، اعملوا وأنتم في مهلة وحياة ، وفي بقية من آجالكم من قبل أن
نمنوا العمل فلا تجدوا إليه سبيلاً وأنفقوا مما عندكم لما بعدكم لأن تهلكوا وتذغوا
ذلك كله بيراثاً لمن بعدكم واعلموا أنه ليس لكم من أموالكم إلا ما أكلتم وشربت
وأنفقتم وأعطيتم فأمضيت وما سوى ذلك فللوارثين .

وصية معاذ بن جبل أيضاً

وأناه رجل في مرضه فقال :

" يا معاذ علمتني شيئاً ينفعنى الله به قبل أن تفارقنى ، فلا أراك ولا تراني
ولا أجد منك خلفاً ثم لغى أن أحتاج إلى سؤال الناس عما ينفعنى بعدك فلا أحد
فيهم مثلك فقال معاذ : كلا إن صالحاء المسلمين - والحمد لله - كثير ، ولن يضيع
الله أهل هذا الدين ، ثم قال له : " خذ عنى ما أمرك ، كن من الصائمين بالنهار
ومن المصليين في جوف الليل ، ومن المستغفرين بالأسحار ، ومن الذاكرين الله على
كل حال كثيراً ، ولا تشرب الخمر ، ولا تزددين ، ولا تتفق والديك ولا تأكل مال اليتيم
ولا تفر من الزحف ، ولا تأكل الريا ، ولا تُدع الصلاة المكتوبة ، ولا تضيغ الزكاة
المفروضة ، وصل رحمك وكن بالمؤمنين رحيمـاً ، ولا تظلم مسلماً ، وحج واعتمر
وجاهـد ، ثم أنا لك زعيم بالجنة .

ومات رحمة الله ، وقد استخلف " عمرو بن العاص " فصلى عليه عمرو فلما
دفنه قال : " رحمة الله يا معاذ فقد كنت - ما علمتك - من نصائح المسلمين ومن
خبارهم وأعلامهم ، ثم كنت مُؤدبـاً للجاهـل ، شديداً على الفاجر ، رحيمـاً بالمؤمنين -
وأيم الله - لا يستخلف من بعدك مثلـك .

وصية لـ "سعاد بن أبي وقاص"

ولما أراد أن يسرّحه دعاه فقال :

إني قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك ، يجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين :

في طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما اطاعه من أطاعه ببعض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة وللقلوب حقيقة ينشئها الله إنشاء ، منها السر ، ومنها العلانية فأما العلانية فإن يكون حامده وزامة في الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس ، فلا تزهد في التحبيب ، فإن النبيين قد سالوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حببه وإنما أبغض عبداً بغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس فمن يشرع معك في أمرك .

وصية أخرى لـ "سعاد بن أبي وقاص"

وكتب "عمرين الخطاب" إلى "سعاد بن أبي وقاص" - رضى الله عنهما - ومن معه من الأجناد .

"اما بعد ، فإن أمراك ومن معك من الأجناد يتقى الله على كل حال فإن تقى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من العاصي ، منكم من عدوكم فإن ذنب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمين بمعصية عدوهم لله ، ولو لا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعدوهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، إلا تنصر عليهم لفضلنا لم نغدوهم بقوتنا ، فاعلموا بأن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا

شر ما ذكرنا يسلط علينا ، فربّ قوم سلط عليهم شرّ منهم كما سلط على بني إسرائيل ^١ لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الدبار وكان وعداً مفعولاً ، وسائلوا الله العون على أنفسكم ، كما تسائلوه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم وترفق بال المسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم سيراً يتبعهم ولا تقترب بهم عن منزل برفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم (والسفر لم ينقص قوتهم) فإنهم سائرون إلى عدو مقيد ، حامي الأنفس والكراء ، واقم من معك في كل جماعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يحبون فيها لأنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونزع مزارعهم عن قري أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بيديه ، ولا يرزا أحد من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولهم خيراً ولا تستنصروه على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإنما وطأت أرض العدو فأنت العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ولتكن عندك من العرب أو من أهل من الأرض من تطمئن إلى نصبه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خيراً وإن صدقت في بعضه ، والغاش عين عليك ، وليس عيناً لك ول يكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الملائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم فتضطجع السرايا أبداً لهم ومرافقهم ، وتتنبع الملائع عوراتهم وتتقلّل الملائع أهل الرأي والبس من أصحابك ، وبتخيّر لهم سوابق الخير فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاد ولا تخفي بها أحنا بهون فتضعي من رأيك وأمرك ، أكثر مما أحبيت به أهل خاستك ، ولا تتعذر طيبة ، ولا سرية في وجه تتخفف فيه غلبة أو ضيعة ونكابية فإذا عاينت العدو فاضسم إليه أقصاصك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعالجهم المتجارة ، مالم يستكرهك قتال حتى تبصّر عورة عدوك ومقاتلته ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنوعه به ، ثم أذك أحراسك على عسكرك وتبقيظ ، وتبقيظ من البيات جهودك ، ولا تؤت باسيرة ليس له عقد إلا ضربت عنقه ، لترهيب به عدو الله وعدوك ، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان .

الدعا

وكان "أبو بكر" - رحمه الله - يدعو في كل يوم غدوة وعشية في دبر كل صلاة الغداة وبعد العصر يقول ،

"اللهم إنك خلقتنى ولم تك شيئاً ، ثم بعثت إلينا رسولاً ، رحمة منك لنا وفضلأً منك علينا ، فهديتنا وكنا ضللاً ، وحبببت إلينا الإيمان وكنا كُفّاراً ، وكفرتانا وكنا قليلاً ، وجمعتنا وكنا أشتناً ، وقويتنا وكنا ضعافاً ، ثم فرضت علينا الجهاد وأمرتانا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا الله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، اللهم لأصيبحنا أن نطلب رضاك ونجاهد أعدائك من عدل بك ، وعبد معك إليها غيرك ، تعاليت عما يقولون علوًّا كبيراً ، اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين ، اللهم افتح لهم فتحاً كبيراً ، وانصرهم نصراً عزيزاً ، واجعل لهم من لدنك سلطاناً نصيراً ، اللهم شجع جنوبهم ، وثبتت أقدامهم وزلزل بعدهم وأدخل الرعب قلوبهم ، واستأصل شاقتهم ، وقطع دابرهم ، ولِذْ خضرائهم ، وأورثنا أرضهم ، وديارهم وأموالهم ، وكن لنا ولينا ، وبنا حذينا ، وأصلح لنا شأننا كله ونياتنا وقضائنا وتبعاتنا واجعلنا لأنصارك من الشاكرين ، واغفر لنا والمؤمنين ، والمؤمنات وال المسلمين والسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، ثبتنا الله وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ."

ما قال "ريقعي بن عامر" عند رستم "قائد جيش الفرس"

وأرسل "رستم" قائد جيش الفرس إلى "سعد بن أبي وقاص" أن ابعث
إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا فبعث إليه "ريقي بن عامر" فلما انتهى إليه قال له
الترجمان باسمه "عيود" من أهل الخبرة : ما جاء بكم ؟ قال ،
"الله أبتعثنا ، والله جاء بنا لخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله
ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه
إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه
وأرضه يليها دُنّنا ومن أبي قاتلناه أبداً ، حتى نقضى إلى موعد الله قال : وما
موعد الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبي والظفر لمن بقى .

وصية على لـ "قيس بن سعد"

ولما قتل عثمان - رضي الله عنه - ووالي "على بن أبي طالب" الأمر دعا قيس
بن سعد بن عبادة الأنصاري وولاه مصر عام ٢٦هـ وقال له :
"سر إلى مصر فقد ولتكها ، واخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ، ومن
أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فإن ذلك أربع لعدوك ، وأعز لوليك
فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فاحسن إلى المحسن ، واشتد على المريب ، وأرفق
بالعامة والخاصة فإن الرفق يُمن .

وصيته لـ "أُسَامَةَ بْنَ زِيدَ"

وأوصى أُسَامَةَ بْنَ زِيدَ وجيشه حين سيره إلى "لبنى" ^(١) ، فقال :

"ياباً الناس : قفو أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تُبَلُّوا
ولا تخذروا ، ولا تُمثلو ، ولا تقتلوا مظللاً صغيراً ، ولا شبيحاً كبيراً ، ولا امرأة
ولا تغروا نحلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجراً مثمراً ، ولا تنبحو شاةً ولا بقرة
ولا بعيراً إلا لماكلاه ، وسوف تسررون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوه
وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام
فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا
أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا
باسم الله".

١- وصيته لـ "عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ وَالْوَلِيدِ بْنِ عَقبَةَ"

وطبع "عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ وَالْوَلِيدِ بْنِ عَقبَةَ" مبعثهما على الصدقة ، وأوصى كل واحد منهما بوصية واحدة :

"اتق الله في السر والعلانية ، فإنه من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه
من حيث لا يحتسب ، ومن يتق الله يكر عنه سباته ويعظم له أجرًا ، فإن تقوى
الله خير ما تواصى به عباد الله ، إنك في سبيل من سبل الله ، لا يسعك فيه
الإدهان والتغريط والغفلة بما فيه قوام دينكم ، وعصمة أمركم فلا تئن ، ولا تفتر".

١ - لبنى : موضع يقرب موته بمشارق الشام قتل فيه والله "زيد بن حارثة".

٢- وصيته لـ " خالد بن الوليد "

ووصى " أبو بكر " خالد بن الوليد فقال :

" سر على بركة الله ، فإذا سخطت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأداء ولا تقاتل بمجرور ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، فإن مالك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكألهم إلى الله في سريرتهم وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائمه ".

وصية " خالد بن سعيد بن العاص " لـ " أبي بكر "

ولما أراد " خالد بن سعيد بن العاص " أن يغدو سائراً إلى الشام ، لبس سلاحه وأمر إخوته فلبسو أسلحتهم ، عمراً والحكم وأبنان ، وغلمته ومواليه ، ثم أقبل إلى أبي بكر - رضي الله عنه - بعد صلاة الغداة وصلى معه ، فلما انصرفوا قام إليه هو وإخوته ، فجلسوا إليه فحمد الله " خالد " وأثنى عليه وصلى على النبي (ﷺ) ثم قال ،

" يا أبي بكر إن الله أكرمنا وإياك وال المسلمين طرئاً بهذا الدين ، فلتحق من أقام السنة ، وأمات البذلة ، وعدل في السيرة ، الوالى على الرعية ، وكل أمرى من أهل هذا الدين محققاً بالإحسان ، ومعدلة الوالى أعم نفعاً ، فاتق الله يا أبي بكر " فبین ولاك الله أمره ، وارحم الأرمدة واليتيم وأعن الضعيف المظلوم ، ولا ينكِّر رجل من المسلمين إذا رضيت عنه أثر عندك في الحق منه إذا سخطت عليه ، ولا تخضب ما غضبت على ذلك فإن الغضب يجر الجور ، ولا تحقد على مسلم وأنت تستطيع

فإن حقدك على المسلم يجعلك له عدواً ، ومن اطلع على ذلك منك عاداك ، فإذا
عادي الوالى الرعية ، وعادت الرعية الوالى كان ذلك قيئاً أن يكون إلى هلاكهم .
داعياً ، وكن لينا للمحسن ، وأشدد على المريب ، ثم قال : هات يدك فإني لا أدرى
هل تلقى في الدنيا بعد هذا اليوم ؟

فإن قضى الله لنا التقاء فنصل الله عفوه وغفرانه ، وإن كانت هي الفرقة
التي ليس بعدها التقاء ، فعرفنا الله وإيمان وجه النبي ﷺ في جنات النعيم
فأخذ "أبو بكر" - رضي الله عنه - ثم بكى وبكي خالد المسلمين ، وظنوا أنه يريد
الشهادة .

وصية "أبي بكر" لـ "خالد بن سعيد بن العاص"

فلما خرج من المدينة قال له "أبو بكر" - رضي الله عنه - :
"إنك قد أوصيتني برشدي وقد وعيته ، وأنا موصيك فاستمع وصيبي وعيها
إنك أمرتني قد جعل الله لك سابقة في الإسلام ، وفضيلة عظيمة ، والناس ناظرون
إليك ، ومستمعون منك ، وقد خرجمت في هذا الوجه العظيم الأجر ، وأنا أرجو أن
يكون خروجك نهاية لحسبة ونهاية صادقة إن شاء الله ، فثبتت العالم ، وعلم الجاهل
وعاتب السفهاء ، المترف وانصح لعامة المسلمين ، واخصص الوالى على الجنادل
من نصبهتك ومشورتك ما يحق الله وال المسلمين عليك ، واعمل لله كائنك تراه ، واعدد
نفسك في الموتى ، واعلم أن عمما قليل ميتون ، ثم موريتون ثم مسائلون ومحاسبون
جعلنا وإياك لأنعمة من الشاكرين والنسمة من المخلصين ، ثم أخذ يدعوه ويعده" .

وصية أبي بكر لـ "عمرو بن العاص"

ولما أجمع أبي بكر أن يبعث الجيوش إلى الشام كان أول من سار من عماله "عمرو بن العاص" وخرج "أبو بكر" بمشي إلى جنوب راحلة "عمرو بن العاص" وهو يوصيه ، ويقول ،

"يا عمرو اتق الله في سر أمرك وعلانيته ، واستحيه فإنه يراك وينسى عملك وقد رأيت تقديمي إليك على من هو أقدم منك ، ومن كان من أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بما تعمل وجه الله ، وكن والدًا من معك ولا تكشف الناس عن أستارهم ، واكتف بعلانيتهم ، وكن مُحيثًا في أمرك واصدق اللقاء إذا لقيت ولا تجبن ، وتقدم في العلوم ، وعاقب عليه ، وإذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك ربعتك وصية له طولية".

وصية "أبي بكر" لـ "عمراً" - رضي الله عنهما - عند موته

إني أستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله ، إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملًا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنك لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فإذا ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيمة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لم يزان لا يوضع فيه إلى الحق أن يكون ثقيلاً ، وإن شافت موازين من حفظ موازينه يوم القيمة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لم يزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بمحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني أخاف إلا أكون من هؤلاء وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو إلا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً

راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة فإذا حفظت وصيتي
فلا يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك وإن ضيغت وصيتي فلا يكن غائب
أبغض إليك من الموت ولست بـمُعْجِزَلَه " .

وصية "عمر" لـ "أبي عبيد بن مسعود"

وتقديم عمر إلى أبي عبيد بن مسعود فقال :

"إنك تقدم على أرض المكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم
قد جرعوا على الشر فعلموا ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واحذر
لسائك ولا تُغش لـنا سرك فإن صاحب السر ما ضبطه فتحصن لا يؤتى من وجهه
يكرهه ، وإذا ضيغته كان بمضيغة " .

وصيته لـ "سعد بن أبي وقاص"

وصي سعد بن أبي وقاص حين أمره على حرب العراق فقال :

"يا سعد بن وهيب ، لا يغرنك من الله أن قبل خال رسول الله (ﷺ)
وصاحب رسول الله ، فإن الله - عزوجل - لا يمحو السوء بالسيء ولكنه يمحو السيئ
بالحسن ، فإن الله ليس بيده وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم
ووضيغهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده ، يتغاضلون بالعافية ، ويدركون
ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذي رأيت الشيء (ﷺ) منذ بُوّثت إلى أن فارقنا
فالزمه ، فإنه الأمر ، هذه غُطْتني إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت
من الخاسرين " .

وصية العباس بن عبد المطلب (المتوفى ٣٢١هـ) لـ ابنه عبد الله

قال عبد الله بن عباس " قال لي أبي :

" يا بني إني أرى أمير المؤمنين - يعني عمر بن الخطاب - قد اخترتك دون من ترى من المهاجرين والأنصار، وإنني موصيتك بخالد أربع : لا يجرئ عليك كذبا ولا تختاب عنده مسلماً، ولا تفشن له سراً، ولا تطمر عنه نصيحة ، قال : فقلت يا أبي .

كل واحدة منها خير من ألف . فقال : كل واحدة منها خير من عشرة آلاف .

وصية عمر لـ " الخليفة من بعده "

وأوصى عمر الخليفة من بعده فقال :

أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالهاجرين الأولين خيراً أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنتهم وتجاوز عن مسيئتهم وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم رداء العدو وجبة الفي ، لا تحمل فيئتهم ، إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أهل العرب ، ومادة الإسلام أن تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم ، فترد على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيراً ، أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، إنما أتوا ما عليهم للمؤمنين ملوعاً ، أو عن يدهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة أن يطلع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، وتخشى الناس في الله وأوصيك بالعدل في الرعي ، والتفرغ لحوانجهم وتغورهم ، ولا تؤثر عندهم على فقيرهم ، فإن ذلك بإذن الله سلامه لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير في عاقبة أمرك حتى تفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وأمرك أن تشتت في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه على قرب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذك في أحد رفقة حتى تنتهي منه ، مثل ما انتهك من حرمة الله ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبالي على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله ، فما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتطظم ، وتحرم نفسك

من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة وأنت إلى الآخرة جد قريب ، فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط الله لك اقترفت به إيماناً ورضاواناً ، وإن غلبك الهوى ، اقترفت به سخط الله ، وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة ، وقد أوصيتك وحضرتك ونصحتك ، فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة ، واختبرت من دلالتك ما كنت بالأعليه نفسى ولدى ، فإن عملت بالذى وعظتك وانتهيت إلى الذى أمرتك ، أخذت به نصيباً وافراً ، وحظاً وافياً ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم يهمك ولم تنزل معظم الأمور عند الذى يرضى الله به عنك يكن ذلك بك انتقاماً ، ورأيك فيه مدخولاً ، لأن الأهواء مشتركة ورأس كل خطيئة إبليس ، وهو داع إلى كل هلة ، وقد أضل القرون السالفة قبلك ، فأوردهم النار ، وليئس الثمن أن يكون حظ امرئ موالة عدو الله الداعي إلى معاصيه ، ثم اركب الحق وخفض إليه الغمرات ، وكن واعظاً لنفسك ، أشتدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فأجلل كبارهم ، وراحם صغارهم ، ووقر عالمهم ، ولا تضرر بهم فينلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفاني فتضعيهم ، ولا تحرهم عطایاهم عند محلها فتفقيرهم ، ولا تجمرهم في البعثة فتقطع تسليمهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تخلق بابك دونهم ، فياكل قويهم ضعيفهم ، هذه وصيتي إليك وأشهد الله عليك ، واقرأ عليك السلام .

وفي رواية الطبرى :

قال . " وأوصى الخليفة من بعدى بالأنصار الذين تبواوا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بالعرب فإنها مادة الإسلام أن يؤخذ من صدقاتهم حقها فتوضع فى فقرائهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله (ﷺ) أن يوفى لهم بعدهم ، اللهم هل بلغت ؟ تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة .

وصيحة شريح بن هاني لـ "ابن موسى الأشعري"

ولما أراد أبو موسى المسير قام إليه شريح بن هانيٌّ الخارش فأخذ بين يديه وقال :
”يا أبا موسى : إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجير صدّعه ، ولا تقال فلتنته
ومهما من شئ لتك أو عليك ، يثبت حقه ، ويرى صحته وإن كان باطلًا ، وإنه لإبقاء
أهل العراق إن ملتهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملّكهم علىَّ ، وقد كانت
منك تشبيطه ، أيام الكوفة والجمل ، فإن تشفّعها بمثلها يكن الظن بك يقيناً
والرجاء ملتك يأساً ثم قال .

فلا تضع العراق (فديك نفسى)
 فإن اليوم فى مهمل كامس
 كذلك اللدھر من مسن ونحس
 عدو الله مطلع كل شمس
 موھة مزخرفة بليس
 كشیغ فى العوادث غير نكس
 سوى عرس الذى وأى عرس؟
 أبا موسى : رميت يشر خصم
 وأعط الحق شامهم وخذه
 وإن غداً يجيئ بما عليه
 ولا يخدعك عمرو إن عمراً
 له خداع بحار العقل منها
 لا تجعل معاوية بن حرب
 هداه الله للإسلام فرداً
 فقال أبو موسى : " ما ينفع لقوم اتهموني أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلًا
 أو آخر اليهم حقاً "

وصية الأحنف بن قيس لـ "أبي موسى الأشعري"

ولما حُكم أبو موسى الأشعري أتاه الأحنف بن قيس فقال له

"يا أبا موسى : إن هذا مسير له ما بعده ، من عز الدنيا أو ذلها آخر الدهر أدع القوم إلى صلاة علىَّ، فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشام من قريش العراق من أحبوها ، ويختار أهل العراق من قريش الشام من أحبوها ، وإياك إذا لقيت ابن العاص أن تصافحه بيته ، وأن ينعدك علىَّ صد المحسن فانها خديعة وأن يضرك

وإيه بيت فيكم لك فيه الرجال ، ودعيه فليتكلم لتكون عليه بالخبر فالبادي
مستغلق والجipp ناطق .

فما عمل أبي موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف ، وأشار به ، فكان من الأمر
ما كان فلقيه الأحنف بعد ذلك ، فقال له : " أدخل والله قد ميك في خفَّ واحدة " .

وصية معاوية لـ " عمرو بن العاص "

١- وقال معاوية لعمرو :

" إن أهل العراق أكرهوا علينا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون عنك
وأرجو في دفع هذه الحرب قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل
اليمن ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ، وله على ذلك دين وفضل
فدعه يقول فإذا هو قال فاصمت ، واعلم أن حسن الرأي زينة في العقل ، إن
خوفك بالعراق فخوفه بالشام ، وإن خوفك مصر فخوفه باليمن ، وإن خوفك علينا
فخوفه بمعاوية ، وإن أتاك بالجميل فأنه بالجميل .

٢- رد عمرو بن العاص عليه :

" يا أمير المؤمنين : أقل الاهتمام بما قبلى ، وارجع الله تعالى فيما وجهتني له
إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تزل في حربك مارجوت ، ولم تأمن
ما خفت ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً ، وقد ذكرت لأبي موسى ديناً
وإن الدين منصور ، أرأيت إن ذكر علينا وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس
عليه ما أقول ؟ " فقال معاوية : " قل ما تريده وترى " .

وصية معاوية لـ " عمرو بن العاص "

١- وجهر معاوية عمرو بن العاص ، وبعثه في سنة آلاف رجل ، وخرج وودعه
وقال له عند وداعه إياه :

" أوصيك يا عمرو بتقوى الله والرفق ، فإنه يُمْنَ ، وبالهيل والتؤدة ، إن العجلة
من الشيطان ، وبأن تقبل من أقبل ، وأن تعفو عنمن أذير ، فلأن قبلك فيها وتعمت
وأن أبي فلأن السطورة بعد المذرة أبلغ في الحجة ، وأحسن في العاقبة ، وادع
الناس إلى الصلح والجماعة فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آخر الناس عندك
وكل الناس فأول حُسْنا ".

رثاء

رثاء " معاذ بن جبل " لـ " أبي عبيدة "

" رحمك الله يا أبا عبيدة ، فوالله لأنني عليك بما علمت ، والله لا أقول
بأطلال ، أخاف أن يلحقني من الله مقت كنت والله - ما علمت - من المذكرين
الله كثيراً ، ومن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإنما خاطبهم الجاهلون قالوا
سلاماً ، ومن الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، ومن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا
ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، وكن والله من المختين المتواضعين ، ومن الذين
يرحمنون اليتيم والمسكين ويبغضون الجفاة المتكبرين ".

ولم يكن أحد من الناس كان أشد جزعاً على فقد " أبي عبيدة " وعلى موته
ولا أطول حزناً عليه من " معاذ بن جبل ".

المقال

مقال حجر بن عدى

وقام حجر بن عدى فقال :

"يا أمير المؤمنين نحن بنو الحرب ، وأهلها الذين تُقْهَمُوا وننتجهما قد ضار
سقنا وضار سناها ، ولنا أعون وعشيرة ذات عدد ، ورأى مجرّب ، وباس محمود
وأزمننا منقادة لك بالسمع والطاعة ، فإن شرقت شرقنا ، وإن غربت غربنا
وما أمرتنا به من أمر فعلنا".

فقال عليٌّ رضي الله عنه : أكل قومك يرى مثل رأيك ؟ قال : ما رأيت منهم
إلا حسنا ، وهذه يدي عنهم بالسمع والطاعة وحسن الإجابة ، فقال له عليٌّ رضي
الله عنه خيراً .

مقال هاشم بن عتبة

وقال " زياد بن النضر الخارثي " لـ " عبد الله بن بديل المزاعي " :

إن يومنا عصيبة ، ما يصبر عليه إلا كل مشبع القلب ، صادق النية ، رابط
الجأش ، وأيم الله ما أظن ذلك اليوم يبقى منهم ولا منا إلا الرذال ، فقال عبد الله
بن بديل ، أنا والله أظن ذلك ، فبلغ كلامهما علياً رضي الله عنه ، فقال لهم ،
ليكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركم ، لا تظهره ولا يسمعه منكم سامع
إن الله كتب القتل على قوم الموت على آخرين ، وكل آتيه منيته كما كتب الله له
فطويلى للمجاهدين في سبيله ، والمقتولين في طاعته ، فلما سمع " هاشم بن عتبة "
ما قالاه أتى علياً رضي الله عنه فقال :

"سرينا يا أمير المؤمنين إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم والذين نذروا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله ، بغير رضا الله فتألحوا حرامه ، وحرموا حلاله ، واستهوي بهم الشيطان ووعدهم الأباطيل ، ومناهم الأمساني ، حتى أزاغهم عن الهدى ، وقصد بهم قد الزدى ، وحجب إليهم الدنيا ، فهم يقاتلون على دنياهم رغبة فيها ، كرغبتنا في الآخرة ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله (ﷺ) رحما ، وأفضل الناس سابقة وقدمًا ، وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذي تعلم ، ولكن كتب عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء وكأنوا ظالمين ، لأن أيدينا ميسوطة بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشرحة لك بذل النصيحة ، وأنفسنا تنصرك على من خالفك ، وتولى الأمر دونك جزلة ، والله ما أحب أن لي ما على الأرض فما أقتل ، ولا ما تحت السماء فما أظلمت ، وأنى والبيت عدواً لك ، وعاديتك وليلأ لك " .

فقال على رضي الله عنه : " اللهم ارزق الشهادة في سبيلك والموافقة لنبيك "

أهم المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- السنة النبوية المطهرة.
- ٣- أثر القرآن في تطور النقد الأدبي إلى آخر القرن الرابع الهجري تأليف / محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٢ م.
- ٤- الأصل والبيان لمعرفة القرآن ، تأليف / حمزة فتح الله ، مصر ، طبعة مصر.
- ٥- أوائل السور في القرآن الكريم ، تأليف / على نصوح الصاھر ، عمان ١٩٥٤ م.
- ٦- الأساس الأخلاقية للحركة الإسلامية ، تأليف / أبي الأعلى المودودي (تعریف محمد عاصم الحداد) دمشق ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م.
- ٧- الإسلام والتكافل المادي في المجتمع ، تأليف / حسن خالد ، بيروت ١٩٥٩ م.
- ٨- الإسلام والديمقراطية ، تأليف / أبي الأعلى المودودي ، دمشق ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م.
- ٩- الإسلام وال العلاقات الدولية (في السلم والحرب) تأليف / محمود شلتوت القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.
- ١٠- إعجاز القرآن تأليف / أبي بكر محمد بن الطيب الباقلي ، تحقيق / أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٥ م.
- ١١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، تأليف / مصطفى صادق الرافعي ط محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٥ م.

دراسات في الأدب ← في عصر صدر الإسلام

١٢- اشتراكية الإسلام ، تأليف الدكتور / مصطفى السباعي ، دمشق ١٣٧٨ هـ . ١٩٥٩ م.

١٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، القاهرة (دار الكتب) ١٩٣٣ - ١٩٥٠ .

١٤- السياسة الإسلامية في عهد النبوة ، تأليف / عبد المتعال الصعبي . القاهرة .

١٥- القصص الفنى في القرآن ، تأليف / محمد خلف الله ، ط الثانية ، القاهرة . ١٩٥٧ م.

١٦- الكشاف عن حفائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري مصر (بولاق) ١٢٨١ هـ .

١٧- اللغات في القرآن ، لأبي محمد إسماعيل بن عمرو الحداد (صلاح الدين المنجد) القاهرة (مطبعة الرسالة) ١٩٤٦ م.

١٨- المفردات في غريب القرآن للراوي الأصفهاني ، القاهرة ، البانى الحلبى .

١٩- المتوكل في ما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية ... الخ ، للسيوطى ، دمشق ، مكتبة القدس والبدير ١٣٤٨ هـ .

٢٠- المعاهدات والمحالفات في عهد الرسول ، تأليف / حسن خطاب الوزير القاهرة ١٩٣٠ م.

٢١- النفاق والمنافقون في عهد رسول الله ، تأليف / إبراهيم سالم ، القاهرة . ١٩٤٨ م.

٢٢- التشرفي القراءات العثمر لشمس الدين محمد بن محمد الجزري ، دمشق مطبعة التوفيق ١٣٤٥ هـ .

٢٣- بين الإسلام والنظم المعاصرة ، تأليف / أبي الأعلى الودودي .

٤- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب لأبي حيان الأندلسى ، حماة
مكتبة عنوان النجاح ١٣٤٥ هـ .

٢٥- تفصيل آيات القرآن الحكيم ، وضعه بالفرنسية (جول لاپوم) ونقله
إلى العربية / محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية .

٢٦- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ، أحمد صقر ، القاهرة ، دار إحياء الكتب
العربية ١٩٥٨ م .

٢٧- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، تأليف / محمد بن إبراهيم
بن الوزير ، القاهرة ١٩٣١ م .

٢٨- جامع البيان عن تأويل آيات القرآن لمحمد بن جرير الطبرى
(محمود محمد شاكر) ، القاهرة ، دار المعارف ١٣٧٤ هـ ١٣٧٨ هـ .

٢٩- زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم الجوزية ، القاهرة ، المطبعة
المصرية ، بلا تاريخ .

٣٠- عصر النبي وبيئته قبل البعثة ، تأليف / هبة الدين الحسني الشهريستاني
بغداد ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

٣١- غريب القرآن للجستاني ، مصطفى عثami ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية
١٩٤٢ .

٣٢- فتح الرحمن لطلاب آيات القرآن ، تأليف كردبيب على زاده فياض الله
الحسني المقدسي ، بيروت ١٢٣٢ هـ .

دراسات في الأدب • في عصر صدر الإسلام

٣٣- قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ، تأليف / محمد جمال الدين سرور ، القاهرة ، الخانجي ، م ١٩٣٠ .

٣٤- كشف الغمة في مدح سيد الأمة ، مختصر من سيرة ابن هشام وغيرها . تأليف / محمود سامي البارودي ، القاهرة ١٣٥٥ هـ .

٣٥- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى - محمد فؤاد سزكينة ، القاهرة الخانجي م ١٩٥٤ .

٣٦- مشاهد القيامة في القرآن ، تأليف / سيد قطب ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٣٧- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبراني (عن بطيحة / أحمد عارف الزين صيدا ، مطبعة العرفان ١٩٣٦ م .

٣٨- من بلاغة القرآن ، تأليف / أحمد أحمد بدوى ، القاهرة ١٩٥٠ م .

٣٩- من توجيهات الإسلام لفضيلة الأستاذ شيخ الأزهر / محمود شلتوت القاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

٤٠- نظرية الإسلام الخلقية ، تأليف / أبي الأعلى المودودي ، دمشق ١٣٧٦ هـ . م ١٩٥٦ .

٤١- نجوم القرآن في أطراف القرآن (ترتيب فرغلي) .

٦٠